﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾ [القمر: 1 - 8]

❁ مناسبة مَطْلَعِ السّورة لِختامِ ما قبلها:

خـتـامُ سـورة النّجم بالإنذار العامّ، ومَطلَعُ سـورةِ القمر بالإنذار الحسّيّ الخاصّ

افتُتِحت سورة القمر بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، وهذه الآية على وجهٍ بليغ تُناسِب ختامَ السّورة السّابقة، سورةِ النّجم، الّتي جاء فيها قولُه تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧﴾؛ أي: دنَتِ القيامةُ واقترب وقوعُها، فأُعيد التّذكير باقتراب السّاعة، لكن في هذه المرّة قُرِن القول بالدّليل الحسّيّ، فدلّل على صدق ذلك بوقوع آيةٍ عظيمةٍ، وهي انشقاق القمر، والمعنى: لقد أخبرناكم بأنّ السّاعة قد أزِفَت، وها هو القمر قد انشقّ فعلًا، تأييدًا لهذا القول، وتصديقًا لوقوعها. فجاءَت سورة القمر تَأكيدًا لِما خُتِمَت به سورة النّجم، مع تعزيز الخبر بالحُجّة المَرئيّة الّتي عاينها النّاسُ، ممّا يزيد من وقع الإنذار وبلاغته[1].

❁ مناسبة الآيات فيما بينها:

إعـراضُ المُكذِّبين سلوكٌ راسخٌ لا يـزول بالبراهين بل بالعَرْضِ يومَ الدّين

لمّا أعرضَ الكفّارُ عن آية انشقاق القمر، ناسبَ ذكرُ سببِ الإعراض، وهو العِناد والتّكذيب واتّباع الأهواء، فهو انتقالٌ من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 288.

ذِكر السّلوك إلى بيان سببه، وناسبَ بعد ذلك ذِكرُ إقامةِ الحُجَج الباهرة عليهم، وبيانُ إصرارهم على التّكذيب، فما تُغْنِ النُّذُر مع المُعانِدين، وناسبَ الانتقالُ إلى بيان المَوقِف منهم، وهو التّولّي عنهم، فإنَّ مآلَهم إلى القيامة، يأتون خاشعين من الذُّلِّ، ويخرجون من أجداثهم إلى مصيرهم المحتوم.

❁ شَرْحُ المُفْردات:

1) ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾: أصل (مرّ) يدلُّ على مُضيِّ شيءٍ، يُقالُ: مرَّ الشَّيءُ يمُرُّ، إذا مضَى[1]. ووَصفُ ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ هنا يجوزُ أن يكونَ مُشتقًّا مِن فِعلِ (مَرَّ) الَّذي هو مَجازٌ في الزَّوالِ، والسّينُ والتّاءُ للتَّقوية في الفِعلِ؛ أي: لا يبقى القَمَرُ مُنشقًّا. ويجوزُ أن يكون مُشتقًّا مِنَ المِرَّةِ بكسرِ الميم؛ أي: القوَّة، من قولِهم: قَد مَرَّ الحَبلُ: إذا صَلُبَ وقَوِيَ واشتدَّ[2]. والسّينُ والتّاءُ لِلطَّلَبِ؛ أي: طَلَبَ لِفعله مِرَّةً؛ أي: قوَّةً؛ أي: تمكُّنًا. والمعنى: هذا سحرٌ معروفٌ مُتكرِّرٌ؛ أي: مَعهودٌ منه مِثلُهُ[3].

2) ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾: أصلُ (قَرَّ) يدلُّ على الثُّبوتُ والتَّمكُّنُ[4]، يُقالُ: قرَّ الشَّيءُ، يَقِرُّ قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِهِ ولم يَتَحَوَّلْ. وقيل: أصلُه مِنَ القُرِّ، وهو البردُ، وهو يقتضي السُّكونَ، والحرُّ يقتضي الحركة. واستَقَرَّ فلانٌ: إذا تحرَّى القَرارَ[5]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: 36]؛ أي: قَرارٌ وثُبوتٌ. وقولُه تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: 67]؛ أي: غايَةٌ ونِهايَةٌ[6]. ومعنى ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾: مَحَلُّ استقرار، والاستقرارُ بمعنى الحُصولِ؛ أي: لكلِّ موعودٍ به وقتٌ يحصُلُ فيه[7].

3) ﴿مُزْدَجَرٌ﴾: أصلُ (زجر) يدلُّ على الانتِهارِ. يُقالُ: زَجَرتُ البَعيرَ حتَّى مضَى، أزجُرُهُ[8]. وزجرتُه وأزدجرتُه، وهو كالنَّهي عنِ السّوء للإنسان، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرّ).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 304، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 90.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(5) الرّاغب، المفردات: (قرّ).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (قرر).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 7/ 287.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر).

﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، وقد يوضع الازدجار مَوضِع الانزجار فيكون لازمًا[1]. فالزَّجرُ: طردٌ بصوتٍ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصّافّات: 19][2]. ومُزدَجَر: مَصدرٌ ميميٌّ، وأصلُه مُزتجر، فأُبدلَت تاءُ الافتعال دالًا[3]. والمعنى: طردٌ ومنعٌ عنِ ارتكاب المآثم والشِّرك[4].

4) ﴿ٱلنُّذُرُ﴾: أصلُ (نذر) يدلُّ على تَخويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويف[5]. والنُّذُرُ: جَماعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسم مِنَ الإنذار. والتَّناذُرُ: إنذارُ بعضِهم بعضًا[6]. والنَّذرُ، وهو أنَّه يَخافُ إذا أخلَفَ[7]. والنُّذُر في الآية معناه: مَن يُخبِرُ غيرَه بأمرٍ مَخوفٍ حتَّى يَحْذَرَه[8]. والمراد: الرُّسُلُ وما حُمِّلوا به من بلاغات النّذير والتّحذير[9].

5) ﴿نُكُرٍ﴾: أصل (نَكَر) يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفَةِ الّتي يَسكُنُ إليها القلبُ[10]. يُقال: نَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلبُهُ ولم يَعترِفْ به لِسانُهُ. والبابُ كُلُّهُ راجعٌ إلى هذا. فالنُّكرُ: الدَّهيُ، والنَّكراءُ: الأمرُ الصَّعبُ الشَّديدُ، ونَكُرَ الأمرُ نَكارَةً[11]، و(نُكُر) معناه مُنكَر، وهو الّذي تأباه النَّفسُ من جهة نفور الطَّبع، وذلك أنّهم لم يَرَوا مثلَه قطّ؛ فينكرونَهُ استعظامًا له، وهو صفة على (فُعُل)، مثل: جُنُب، وجُزُر، وأُحُد، ويجوز فيه التَّخفيف، وإنَّما وُصف بأنَّه ﴿نُكُرٍ﴾ لغِلَظه على النَّفس[12].

6) ﴿خُشَّعًا﴾: أصلُ (خشع) يدُلُّ على التَّطامُنِ. يُقالُ: خَشَعَ، إذا تَطامَنَ وطأطأ رأسَه، يَخشَعُ خُشوعًا[13]. والخُشوعُ: السُّكونُ والتَّذَلُّلُ، يُقالُ: خَشَعَ في صلاته: إذا أقبَلَ بقَلبِه على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: 10/ 318، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 92.
(2) الرّاغب، المفردات: (زجر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 431.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 98.
(4) الرّاغب، المفردات: (زجر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 431.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 137.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 556.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 157.
(12) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 95.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).

ذلك، مأخوذٌ مِن خَشَعَتِ الأرضُ: إذا سَكَنَتْ واطمَأنَّتْ، وخَشَعَ بَصَرُهُ؛ أي: رَمَى ببَصَرِهِ نحوَ الأرضِ، وخفَضَ صَوتَهُ. واختَشَعَ: إذا طأطأ صَدرَه وتَواضَعَ[1]. ووُصِفَتِ الأبصارُ بالخُشوعِ؛ لأنَّ ذِلَّةَ الذَّليل وعِزَّة العزيزِ تتبيَّن في نظره، كما قال عزَّ ذِكره: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشّورى: 45][2]. والمعنى: ما يبدو عليهم مِن أثَر المَذلَّة والمَخافة يوم القيامة[3].

7) ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: (جدث) أصلٌ واحدٌ وهو القَبرُ، والقَبرُ: حَفيرٌ يُجعَلُ لمواراةِ المَيِّتِ. وجَمْعُه: أجدُثٌ وأجداثٌ[4]. وتُبدَل ثاؤه فاءً، فيُقال: جَدَف وأجداف، نحو: ثَوْمٌ وفَوْم[5].

8) ﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أصل (هطع) يدلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ وانقيادٍ[6]. يُقالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ: إذا أقبل ببَصَره على الشَّيء لا يُقلِعُ عنه، يَهطَع هُطوعًا[7]، ولا يكون ذَلِك إلّا مَعَ خَوفٍ[8]. والإهطاعُ: الإسراعُ في العَدْو. وأهطَعَ البَعيرُ: صَوَّبَ عُنُقَهُ مُنقادًا. وأهطَعَ: أسرَعَ[9]. ومعنى المُهطِع: الماشي سريعًا مادًّا عُنُقه، وهي مِشيَةٌ مذعورٍ غيرِ مُلتَفتٍ إلى شيءٍ.

9) ﴿عَسِرٌ﴾: أصلُ (عسر) يدُلُّ على صُعوبَةٍ وشِدَّةٍ[10]. ومنه العُسْر: نقيض اليُسْر، وهو الضِّيقُ والشِّدَّةُ والصُّعوبةُ[11]. والعُسرةُ: قِلّةُ ذاتِ اليَد. وكذلكَ الإعسار. والعُسْرى: الأُمور الَّتي تَعسُر ولا تَتيسَّرُ، واليُسْرى: ما استَيسَرَ منها[12]. وقد عَسِرَ الأمرُ يَعْسَر عَسَرًا، فهو عَسِرٌ، وعَسُر يَعْسُر عُسْرًا، وعَسارَة، فهو عَسير[13]. والمعنى: صِفةٌ مُشبَّهةٌ مِنَ العُسْرِ، وهو الشِّدَّةُ والصُّعوبةُ[14].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 96.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 127.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدث).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جدث).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هطع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (هطع).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (هطع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (هطع).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عسر).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (عسر).
(14) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 178.

❁ المعنى الإجماليّ:

تمادي المُكذِّبين رغـمَ اقـتراب القيامة ووضوحِ الآيات

تُخبرُ الآياتُ الكريمة أنّ قيام السّاعة قدِ اقترب، وأنَّ مَن دلائل اقترابها انشقاقَ القمر، وقد وقع ذلك في مكّةَ حين طلبت قريشُ مُعجزة، فانشقّ القمر نصفين، فرأوه رأيَ العَين، ومع ذلك أعرضوا وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ أي: سحر مُتواصِل قويّ. لم يكن إنكارُهم عن عقل أو برهان، بل كان اتّباعًا للهوى وتكذيبًا للحقّ. ومع ذلك فقد جاءَهم من أخبار الأمم السّابقة في القرآن ما يكفي للرّدع والاتّعاظ، وفيه مِنَ الحكمة البالغة ما يكشف العاقبةَ، ويُبيّنُ طريقَ الهلاك والنّجاة، لكنّهم لم ينتفعوا بالإنذار. فكان توجيهُ اللّه لنبيّه أن يُعرِضَ عنهم، فإنّما ينتظرون ما قضاه اللّه فيهم. ثمّ صوّر مَشهَدَ البعث: حين يُدعَى النّاسُ إلى المَوقِف المَهول، وتخشعُ أبصارُهم، ويخرجون مِنَ القبور كأنّهم جَرادٌ مُنتشِر، مُسرِعين إلى النّداء للحساب. هناك يقول الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، وهو كذلك عسيرٌ على مَن كَذَّب وأعرض، لكنّه على المؤمنين يسير[1].

❁ الإيضاح اللّغويّ والبلاغيّ:

بلاغة صيغة (الافتعال) ودلالتُها:

تأكيد اقتراب القيامة ردٌّ على المُعتقِدِ البليد، وتحقيقٌ للمعنى التّليد

دلَّ فعل ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ على معنى: (قرُبت)، لكنَّ النّظم الكريم آثرَ استعمالَ هذه الصّيغة دون (قربت)؛ ليدلَّ على شدَّة الاقتراب[2]، والاقترابُ أصلُه صيغةُ مُطاوَعةٍ؛ أي: قَبولُ فعلِ الفاعل، وهو هنا للمبالغة في القُرب"[3]؛ أي: تحقَّق الاقترابُ وتأكَّد، ولم يبقَ إلّا وقوعُ السّاعة، وفي التّأكيد معنى الرَّدِّ على المُنكِرين وقوعَ السّاعةِ، فكأنَّه قيل: إنْ أنكرتُم وقوعَها فقدِ اقتربت، والاقترابُ مُتحقِّقُ الوقوعِ، مُتأكِّدُ المَجيء.

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 206.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 87، وابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 261.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.

دلالة فعلِ الاقتراب بين الحقيقة والمَجاز:

اقتراب السّاعة في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ يحتمل أن يُحملَ على حقيقته، فهو قربٌ نسبيٌّ مقارنة بعُمُر الكونِ الطّويل منذ أن خلقَه الله، فالمُدّة المُتبقية حتّى قيام السّاعة قصيرةٌ نسبيًّا إذا ما قيسَت بالزّمن الطّويل الّذي مضى، ويُؤيِّده تشبيه النّبيّ ﷺ بين بعثته وقيام السّاعة بإصبعيه السّبابة والوسطى حين قال: «بُعِثتُ أنا والسّاعةَ كهاتين»[1]، كما قال القرطبيّ في معنى الحديث: "وحاصلُه: تقريبُ أمرِ السّاعة الّتي هي القيامةُ، وسرعةُ مجيئها"[2]. ويُحتمل أن يُحملَ على معنًى مجازيّ؛ أي: "الدّلالة على الإمكان، فالمعنى: اتّضح للنّاس ما كانوا يَجدونه مُحالًا من فناء العالَم، فإنّ لِحصول المُثُل والنّظائر إقناعًا بإمكان أمثالها الّتي هي أقوى منها"[3]، فاقترابها هو إثباتٌ لإمكانيّة حدوثِها.

تقريبُ أمرِ السّاعة ومباغتةُ المَجيء حاصلُ الأمرِ ومَقصودُ الخبر

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

تعريف لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ للعهد الذّهنيّ، وليست للجِنس أو للتّعريف العامّ؛ وذلك لأنَّ (السّاعة) عَلَمٌ بالغَلَبَة في نصوص القرآن الكريم، فهي تُطلَقُ على معلوم ومعهود في أذهان المُخاطَبين، فالاستعمال السّابق للكلمة في الخطاب القرآنيّ جعلها عَهدًا ذهنيًّا، فجاءت (أل) لتّعريف هذا المفهوم المَعهود[4].

تذكير العقول بأنّ السّاعةَ يقينٌ حاضر في الوجدان، لا وهمٌ غائب في الخيال

بلاغة انتقاء لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

سُمّيت القيامةُ بالسّاعة؛ "لسُرعة الأمر فيها، أو لمجيئها في ساعةٍ من يومها"[5]، وهذا تعليلٌ عامٌّ يصلح لهذا السّياقِ وغيرِه، ونُكتة اختيارِ لفظ السّاعة دونَ القيامة وغيرِها مِنَ الصّفات الدّالّة على

مجيء القيامة سريعٌ لا يُمهَل وأكيدٌ لا يُهمَل

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4652).
(2) القرطبيّ، المفهم لِما أشكل من تلخيص كتاب مُسلم: 7/ 305.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 171.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 408.

ذلك اليوم المَهول، هو ذكر لفظِ الاقتراب الدّالّ على سُرعة الوقت؛ لأنّ ما يشتدُّ قُربُه يَسْرُع مجيئُه، فاصطفى تعالى لفظًا يدُلُّ على تلك السّرعة، كما أنَّ السّاعةَ هي في حقيقتها لوقتٍ قصير يكون بوقوعه وقوعُ حَدَث مُنتظَر، فلمّا كان سياقُ السّورة ذاكرًا البعثَ، وأحداثَ الأمم الماضية، وما جرى لهم من عقوبات ماحقة، ناسبَ ذكرُ السّاعة؛ لأنَّها ساعةٌ خاطِفةٌ سريعةٌ في عمر الزّمن. مع التّلميح إلى معنى المُباغتة، فهي ليست كعادة الأمور في الدّنيا الّتي تأخذ وقتًا، فإذا جاءَت قامَت فجأةً، وانتهَتِ الحسابات والمَصائرُ بسرعة، وفي هذا إشارةٌ إلى الدّهشة، والمُباغتة، وسرعةِ الحَسْم. والسّاعةُ ستجيء في لحظة خاطفة غيرِ مُحدَّدة.

بلاغة الإسناد المَجازيّ وفائدتُه:

الإيماء إلى قُرب الوقوع وشدّة الحَدَث

إسناد فعل الاقتراب إلى السّاعة في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ مَجازيٌّ، فالسّاعة لا تقتربُ بذاتها، بل وقتها هو الّذي يقترب، واقترابُ زمانِها هو بفعل الله تعالى وحدَه، فهو الّذي يُسيِّر الأزمانَ والأحداث، وهو الّذي يتصرّفُ في ملكوته. وفائدة الإسناد: الإيماءُ إلى قُرب الوقوع، وسُرعة الحَدَث، وشِدّة المَوقِف، فما يشتدُّ قُربُه، تشتدُّ مباغتتُه، وتعظُمُ آثارُه.

بلاغة عطف الانشقاق على الاقتراب، ومناسبتُه:

عطفُ الأدلّة على غاياتها إقناعٌ عقليٌّ وتسلسلٌ بدهيٌّ

عَطْفُ قولِه تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ على قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ من باب عَطْفِ الدّليل على مدلوله، والوسيلةِ على غايتها، فانشقاقُ القمرِ هو دليلُ اقتراب السّاعة، وتظهر المناسبةُ بين المعطوف والمعطوف عليه في أنّ اللّهَ جمع بين أمرَين عظيمَين؛ أحدهما: غيبيّ (اقتراب السّاعة)، والآخر: شهوديّ (انشقاق القمر)؛ ليكونَ الثّاني دليلًا على الأوّل، فحصل التّأكيدُ على تلازمهما بالجمع بينهما،

كما تقول: أقبل الأميرُ، وقد جاء المُبشِّر بقدومه[1]. ويحتمل أن يكونَ العطفُ من عطف الحَدَث على الحدث، وعليه يكون الإخبارُ عن الاقتراب مُرادًا به المعنى الحقيقيّ، أي: أوشكت على الوقوع، فيكون العطف لعطف ما تحقّق وجودُه عَيانًا على ما تحقَّق قربُه غيبًا، فكلاهما مُتحقِّق. وعَطفَ الانشقاقَ على الاقتراب دونَ العكس؛ لأنَّ الاقترابَ أوضحُ في العقل الصّريح مِنَ الانشقاق الّذي جاء به الخبرُ الصّحيح، وبه يَندفع قولُ ابنِ كَيْسان بأنّ العطفَ مَحمولٌ "على التّقديم والتّأخير"[2]؛ وذلك لأنَّ التّرتيب في الوقوع؛ أي: ترتيب وقوع الانشقاق على وقوع الاقتراب.

ومناسبة عطفِ الانشقاق على الاقتراب: هو تقرير نفاذِ القُدرة الإلهيّة على أسرع الوجوه وأتمِّها، فكما انشقّ القمر فِلْقَتين فجأةً من غير تمهيدٍ ولا تنبّؤ، فكذلك السّاعةُ ستأتيكم سِراعًا فجأةً من حيثُ لا تحتسبون.

بلاغة المَجاز الإسناديّ:

قـــوّةُ الـفـعـل ومُكنتُه هي نُكتَةُ إسـنـادِ الـفـعـلِ لغير فاعِله

أُسند فعلُ الانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ مَجازًا إلى القمر، فالقمرُ هو الّذي وقع عليه الفعل، وليس هو الفاعل، فالفاعل الحقيقيّ هو اللّه تعالى، وهذه عادة العرب في إسناد الفعل إلى ما وقع عليه مِنَ الجمادات، كما يقولون: سقط الحجر، وانكسر الزّجاجُ، وذلك لتصوير المُتحدَّث عنه كأنّما صدر الفعل عنه لقوّته، ومكنةِ الفعل فيه.

دلالة التّعبير بفعل الانشقاق مادّةً وصيغةً:

دلَّ فعلُ الانشقاقِ في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ على حدوث فرْجٍ أو تَصَدُّع في جسمٍ ما، دونَ انفصالٍ تامّ، مثل الشّقّ في الجدار

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 431.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 171.

أو الخشبة، وهذا يُطابِقُ وصفَ ما حدث للقمر؛ فهو لم يُحطَّم أو يتناثر، بل حَدَثَ فيه صدعٌ أو انقسامٌ، فجاءَتِ المُفردةُ مُطابقةً للواقع، ودلَّتِ الصّيغةُ الصّرفيّة (انشقَّ) الّتي هي مُطاوِع (شقّه)، إذ يُقالُ: (شُقَّ الشّيءُ فانشقّ)، فقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ يدُلُّ على وقوع الفعلِ بفعلِ فاعلٍ آخر، وليس من ذاته، فهي تفيد أنّ انشقاق القمرِ حصل له بفعلِ اللّه تعالى وقدرته، ممّا يُؤكِّد أنّه مُعجزةٌ إلهيّةٌ مقصودةٌ لإدراكٍ تكليفيٍّ إيمانيٍّ، وهو وقوع اليوم الآخر[1]. كما أنَّ ورودَ فعلِ الانشقاق بصيغة الماضي مُرادٌ به الحقيقةُ لا المَجاز؛ فهو يدلُّ على تحقُّق وقوعِ الحَدَث بالفعل، وانتهائه بشكل قطعيٍّ لا شكَّ فيه. فهي تخبر عن حقيقةٍ واقعةٍ قد حدثَت بالفعل، وشاهدها النّاس، ونقلتها الأخبار.

انشقاقُ القمر برهانٌ مَحسوس يقطع الشّكّ، ويُثبت حقيقةَ البعث

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾:

تعريف ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ للعَهد الذّهنيِّ؛ فالمقصود هو القمر المعهود، والمعروف لدى المُخاطَبين، وهو قَمَرُهُم الّذي يرَوْنه في السَّماء، وليس أيَّ قمَرٍ آخَر، فالكلمة تُحَدِّد الجِرم السَّماويَّ المُعيَّن الّذي حدث فيه الأمر الخارق، وبه فلا يَقبَلُ لفظُ ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾ التّأويلَ، بتنزيله على جِرمٍ سماويٍّ آخر، سواءٌ من باب الخَرْص، أم بوساطة التّخمينات النّظريّة الفلَكيّة المُستجِدَّة.

انشقاق القمر المعهود لا يَقبل التّأويلَ على جِرمٍ سماويٍّ آخر

لفظ الانشقاق بين الحقيقة والمَجاز:

الانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾: له ثلاثة احتمالات؛ الأصل الحقيقيّ: وهو حدوث شَرْخٍ أو صَدْع في سطح القمر؛ أي: تكوّنت هوّةٌ أو فجوة فيه. ويحتمل أن يكون استعارة: إذا حُجِبَ أو انطفأ جُزءٌ من ضوء القمر؛ أي: انمحَت إضاءةُ جُزء منه؛ فاستُعير لفظُ الانشقاق الّذي يصف انفراجَ جسمٍ صُلب، لوصفِ انطماسِ الضّوءِ

الانشقاقُ تحقَّقَ في أصله اللّغويّ، وفي نتيجته المأثورة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.

وزوالِه، والاستعارة تصريحيّة تبعيّة، والجامع بين المُشبَّه والمُشبَّه به هو حدوثُ انقسام أو تفرُّقٍ في شيءٍ كان مُتَّصلًا ومُتجانِسًا، سواءٌ كان هذا الشّيء مادّيًّا كالقمر، أم غيرَ مادّيٍّ كضَوئه. ويحتمل أن يكون مَجازًا مُرسَلًا إذا انقسم القمر إلى قسمين مُنفصِلَين، فأُطلق لفظُ الانشقاق، وهو السّبب والحَدَث الحقيقيّ، على نتيجته، وهي انفصالُ القمر إلى قسمين. والعلاقة سببيّة؛ لأنّ الانشقاقَ هو سبب التَّفرُّق[1].

والاحتمال الأوّل والثّالث لا تنافرَ بينهما، إذ وقوعُ الانشقاق حقيقةٌ، وهو سبب الانفصال، فيكون قد أطلق اللّفظَ الّذي هو السّبب، وهو مرادٌ في بداية الأمر، وأراد نتيجتَه وهو الانفصال، فإنَّ كلَّ انفصالٍ يبدأ انشقاقًا. وأمّا القولُ بالاستعارة فتأويلٌ بعيدٌ لا يوافق ظاهرَ اللّفظ، وما استقرَّ لدى جمهورِ العلماء والمُفسِّرين.

فنُّ بديعِ الإدماج:

إدماج الموعظة والتّذكير في سياق الخبر إطنابٌ بليغٌ وإفادةٌ بديعةٌ

الإخبار بقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ ليس مُجرَّدَ إخبارٍ بحادثةٍ تاريخيّة وقعَت، بل هي موعظةٌ مُدمَجَةٌ في سياقِ الخبر، فالغايةُ من ذِكر انشقاق القمر بعد الإخبار باقتراب السّاعة لا يقتصر على سرد الواقعة، بل التّذكير والتّحذير بأنّ هذا الانشقاقَ هو تصويرٌ تقريبيٌّ لأحَدِ علامات قيام السّاعة، ممّا يدعو النّاسَ إلى الاستعداد ليوم القيامة، والتَّفكُّرِ في هذه العلامات، والاعتبارِ والاتّعاظِ بقُرب الآخرة. والإدماجُ: هو إدخالُ غرضٍ في سياقٍ ليس له، بقصدِ تحقيق الفائدة، وهو لونٌ مِنَ الإطناب البليغ، وهنا هو إدخالُ معنى المَوعظةِ والتّذكير في الإخبار عنِ الحادثة[2].

نوع الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ﴾ تحتمل أن تكونَ عاطفةً،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 171.

مَـنْ كـذّب بآيةٍ فكأنّما كـذَّب بالآيات جميعًا

والجملة بعدَها تذييلٌ للآية السّابقة، فقولُه: ﴿ءَايَةَ﴾ يُشيرُ إلى معجزة انشقاق القمر الّتي رآها المُشركون وكذّبوا بها، وتحتمل أن تكون استئنافًا؛ لإفادة عموم مَوقِف المُشرِكين من جميع الآيات الحسّيّة المُشاهَدة، فالجملةُ مُستقلَّةٌ؛ لبيان حال المُشرِكين عمومًا، وأنّ أيَّ آيةٍ يَرونها يُعرِضون عنها، ويُكذِّبونها، ويَصفونها بالسِّحر[1].

نُكتَةُ التّعبيرِ بـ(إنْ) دون (إذا):

مَـظِـنّـةُ رؤيـةِ الآيات الكونيّة، لـيـس مـظـنّـةً للإيمان بالآيات القرآنيّة

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ (إنْ) دون (إذا)، فقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾، و(إنْ) تُفيد الشّرطَ مع مَظنّة الوقوع، بخلاف (إذا) فهي قطعيّةُ الوقوع، وذلك في غالب الاستعمال، ونُكتَةُ التّعبيرِ بها أنَّ رؤيةَ الآيات ليس أمرًا يقينيًّا، بل هو ظنيٌّ، كأنّه قال: إنْ رأوا آيةً أعرضوا، فكيف في عدم رؤيتهم؟ فمَظِنَّةُ الوقوعِ هو لرؤية الآيات لا للإعراض، إذِ الإعراض مُتحقِّقُ الوقوعِ منهم، وذلك أنَّ رؤيةَ الآيات الخارقة ليس مُرادًا شرعًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: 37].

نوع الرّؤية ودلالتُها:

الرّؤية دليلٌ على انشقاق القمر، وكثيرٌ مِنَ النّاس رآه

الرّؤية في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ﴾ هي رؤية حِسّيَّة لا علميّة، فيدلُّ الفعلُ على الإدراك الحسّيّ بالعين، ولذلك تعدَّت إلى مفعول واحد، وذلك يُقوّي رؤيةَ المُشرِكين لآية انشقاقِ القَمَر رؤيةَ عينٍ، وينفي السّماعَ أو التّخمين في إدراكهم للأمور، ويقوّي حجّة القرآنِ عليهم، فهم لم يُكَذِّبوا شيئًا غيبيًّا، بل شاهدوه بأعينهم، قال الزّمخشريّ: "وعن بعض النّاس: أنّ معناه ينشقُّ يوم القيامة، وقولُه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يَردُّه، وكفى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 171.

به رادًّا"[1]، وهذا احتجاجٌ قويٌّ بالآية على أنَّ الرّؤيةَ حسّيّةٌ واقعةٌ في الدّنيا.

دلالة الفعل المضارع:

تـجـدّدُ إعـراضِ أهـلِ الـكفر مع تجدّد الآيات

دلَّ الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ على التَّجدُّد المُستقبليّ لأنَّ (إنْ) تدلُّ على الاستقبال؛ أي: إنْ يرَوا في المُستقبل آيةً تلو أختِها فهُم مُعرِضون.

نُكتَةُ تنكير لفظ ﴿ءَايَةً﴾:

الـتّـقـريـب بين الآراء التّفسيريّة أولى من التّرجيح

نُكِّرَ لفظُ ﴿ءَايَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ في سياق الشّرط للعموم، فيَعُمُّ المعنى كلَّ آيةٍ خارقة، من شأن رائيها أن يُقبِلَ مُؤمِنًا، ويدخلُ فيها دُخولًا أوّليًّا آيةُ انشقاقِ القمر بطريق الأولَى لا بطريق النّصّ اللّفظيّ، وبه يُعمَل الرّأيان[2] سويًّا في الآية؛ أي: الرّأيُ القائل بإرادة كلِّ آية، والرّأيُ القائل بإرادة آية انشقاقِ القمر، الأوّلُ بطريق النّصّ، والآخَرُ بطريق الأوْلَى.

بلاغة استعمال مفردة الإعراض دون الكفر:

الإعراض تصريحٌ بـدلـيـل الـكـفـر وتلميحٌ لضِدّه مِنَ الإقبال على الإيمان

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة الإعراض في جواب الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ دون (يكفروا)؛ لأنَّ شأنَ رؤيةِ الآيات هو الإقبالُ، ثُمَّ الإيمانُ لا الإعراض، فكان ذِكرُ الإعراض تلميحًا لأثر رؤية الآيات في النّاس أصحابِ الفِطَر السّويّة، وهو الإقبالُ، فلمّا حَدَثَ مِنَ المُشركين الإعراضُ دلَّ ذلك على فساد فِطرتهم، وسوءِ طويّتِهم، وخرابِ قلوبِهم، كما أنَّ ذِكرَ الإعراضِ كنايةٌ عنِ الكفر، إذِ الإعراضُ دليلُ الكفر؛ فدلَّ الإعراضُ على أنّ رؤيتَهم كانت بلا تحقيقٍ وإعمال فِكْر، بل كانَت رؤيةَ المُتهاوِن السّاخِر.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 431.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 410.

بلاغة استعمال مفردة الإعراض دون مقارباتها:

التّعبيرُ بالإعراض في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ أنسبُ للغفلة والاستهزاء، فالقوم لم يكتفوا بالإعراض، بل ألحقوه بالاستهزاء فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، فناسبَ أن يسبقَ ذلك فعلٌ فيه معنى التّغافل والتّهاون، لا فعلٌ فيه شدّةٌ ومجافاة؛ كنأى أو صَدَّ، كما أنّ الإعراضَ أقلُّ كُلفةً من غيره، فـ(النّأيُ) و(الصّدودُ) و(البعد) تدلُّ على فعل فيه مَجهود أو نَفرة أو مَواجهة. أمّا هؤلاء فلم يُكلِّفوا أنفسَهم شيئًا؛ ولم يقاوموا ولم يواجهوا، بل انصرفوا بلا مبالاة، وكأنّهم لم يرَوا شيئًا. وهذا من أبلغ ما يُصوِّر اللّامبالاةَ المُجرِمة أمامَ أعظمِ آيةٍ كونيّةٍ. فاختيارُ الإعراض هنا يلتئمُ مع جوّ المَوقِف. ولم يعبّر بالانصراف؛ لأنّ الانصرافَ فيه معنى التَّحوّل والانقطاع عنِ الشّيء بمغادرةٍ فعليّةٍ، فهو حركةٌ تامَّةٌ بعد مَوقِفٍ. فلو جاء هنا: (وإنْ يروا آية ينصرفوا) لأوهمَ أنّهم وقفوا لحظةً عند الآية ثمّ مالوا عنها، بينما المرادُ أنّهم لم يلتفتوا إليها أصلًا، وإنّما قابلوها بوجوهٍ مُعرِضة منذ البداية. فالإعراض أبلغ في تصوير حالة التّغافُل الفوريِّ.

التّعبيرُ بالإعراض أنسبُ للغفلة والاستهزاء

ولم يعبّر بالبُعد؛ لأنّ البعدَ في جوهره مسافةٌ مكانيّةٌ أو معنويّةٌ تفصِل بين شيئين. فلو قيل: (وإن يروا آية يبتعدوا) أو (يبعدوا)، لكان المعنى: أنّهم تباعدوا عنها، وكأنّ بينهم وبينها انفصالًا في المكان أو في الاعتبار. لكنّهم لم يتباعدوا، بل كانوا حاضرين يرون الآيةَ رأيَ العين، غيرَ أنّهم أداروا وجوههم عنها بلا اكتراث.

فاختير لفظ الإعراض في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ دونَ النّأي أو الصّدود أو البُعْد؛ لأنّ الإعراضَ أقربُ لِما بَعْدَ رؤية الآية مُباشرة، فالآية تقول: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾؛ أي: أنّ مَوقِفهم الأوّل عند مُشاهدة الآية لم يكن عنادًا عنيفًا (نأيًا)، ولا مُجابهة مُتشدِّدةً (صدودًا)، بل مُجرَّدَ صرفٍ

وجوهِهم بلا مُبالاة؛ أي: أنّهم تعاملوا مع الحَدَث العظيم، وكأنّه لا يستحقُّ التفاتًا. وهذا أليقُ بـ(الإعراض) الّذي فيه معنى الانصراف بالوجه دون استجابة، لا بالمواجهة الشّديدة.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

الإعراضُ المُستمرُّ دليلُ الكفرِ الرّاسخ والقلبِ السّاخر

جاء فعلُ الإعراض في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ بصيغة المضارع في جواب (إنْ) الشّرطيّة ليدلَّ على التّكرار والاستمراريّة، فإعراضُهم لم يكن مرَّةً واحدةً، بل كان عادةً دائمةً كلّما رَأوا آيةً، ويدلُّ على التّعمُّد والقصد، فالصّيغة الزّمنيّة تفيد أنّ إعراضَهم كان فعلاً إراديًّا مُتعمَّدًا، وليس مُجرَّد غفلةٍ أو سهو أو غَلَبةِ هوى.

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

مَن كفر بالحقّ عنادًا أعرض عنِ المعجزات استهزاءً

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بأسلوب الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾، فكلّما تحقَّق الشّرط (رؤية آية)؛ تحقَّقت النّتيجةُ (الإعراض)، وهذا يقتضي أنّ هذا السّلوكَ ثابتٌ ومُتكرِّرٌ كلّما واجهوا مُعجزة، ممّا يجعله دَيْدَنًا لهم وعادةً وعُرفًا مُستمرًّا. فالأسلوبُ الشَّرْطيُّ هنا يُخرِج الخبرَ من كونه حادثةً واحدةً إلى كونه وصفًا لطبيعتهم وسجيّتهم في التّعامل مع الحقّ[1].

مناسبة عطف القول على الإعراض:

عطفُ الدّليل على المدلول بيانٌ للإعراض وتأكيدٌ للكفر

ناسب عطفُ القولِ على الإعراض في قوله تعالى: ﴿يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ لبيان الدّليل بعد ذكر المدلول؛ فقولُهم بيانٌ للإعراضِ، وفيه تأكيدٌ على أنّهم تحقّقوا بالكفر باطنًا وظاهرًا، فأعرضوا بقلوبهم، وأظهروا ذلك بقولهم؛ فلم يتركوا لأنفسهم بحبوحةً للتّراجع أو إعادة النّظر، ولم يتركوا فُسحةً لنبيّهم أن

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172.

يَعذِرَهم أو يتأنّى في الحُكم عليهم، فمَن نطقَ بما فيه، فقد احتجّ على نفسِه، وقطع عنها الإعذار بإظهار حاله.

دلالة صيغة المضارعة:

الافتراءُ المُستمرُّ هو الحقيق بوصف سحرٍ مُستمرٍّ

التّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ يدلُّ على أنّ هذا القولَ دَيْدَنُهم، ويتجدَّد منهم، ويكأنّهم لا ينفكّون عنِ اختراع الحيَل الّتي يُلبِّسون بها على أنفسهم، ويُدلِّسون بها على النّاس؛ ليكون ذلك ذريعةً في الصَّدِّ عن آيات الله وسبيلِ رسُلِه[1].

فائدةُ حذفِ مَرجعِ الضّمائر:

يرجع الضّميرُ إلى معلومٍ في الأذهان مُتجدِّدٍ على طول الزّمان

ترجِع الضّمائرُ في الأفعال ﴿يَرَوۡاْ﴾، و﴿يُعۡرِضُواْ﴾، و﴿وَيَقُولُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ﴾ على المُشركين رغم عدمِ ذِكرهم في الآية؛ ذلك أنَّ عادة القرآن الكريم عدمُ تعيينِ المقصود المعلوم للمُخاطَبين في السّياق إلّا لنُكْتَةٍ، فالإيجازُ هو مَسلَك النّظم، فحَذفُ ذِكرِ المُشركين مع عودة الضّمائر إليهم يُعطي إيجازًا بلاغيًّا، حيثُ يفهمُ السّامعُ المقصودَ من الكلام دون حاجةٍ للتّصريح به، وللإضمار فائدةٌ أُخرى: وهي تعميم الحُكم؛ فرغم أنَّ القصَّةَ مرتبطةٌ بمشهد انشقاق القمر، فإنَّ عدمَ ذِكرِ مَرجع الضّمائر يُعمِّمُ الحُكمَ على كلّ مَن يَسلُكُ مَسلَكهم؛ فترجِع الضّمائرُ إلى المقصود المُتعيِّن في الأذهان، سواءٌ أكان المُشركين عند نزول الآيات، أم مَن شابههم على توالي الأيّام، فإنَّ الإعراضَ مع وضوح الحقِّ سبيلُ المُجرمين، وديدنُ الظّالمين.

غرض تنكير لفظ ﴿سِحۡرٞ﴾:

دلالة التّنكير مُنتزَعةٌ مِنَ القيود ودلالات السّياق

نُكِّر لفظُ ﴿سِحۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ وذلك راجع إلى اختلاف دلالة الصّفة عن الموصوف، فإنْ كان ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 96.

بمعنى: (شديد قويّ نافذ) فالتّنكيرُ للتّهويل والتّعظيم، وإنْ كان بمعنى: (دائم متواصل)، فالتّنكير للتّحقير والتّهوين، وإنْ كان بمعنى: (زائل لا يبقى ومُنقطِع) فالتّنكير للتّجهيل والتّقليل[1].

تنوُّع المعاني لمفردة ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾:

استيعاب المفردة القرآنيّة مَذاهِبَ القائلين وتصويرُ مَقاصِدِهم

تحتمل مفردة ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ معانيَ مُتعدِّدةً[2]؛ منها: أن يكون معناها: دائم مُتواصِل يتجدَّد ولا ينقضي. أو أن يكون معناها: شديدٌ قويٌّ نافِذٌ لا يُقاوَم؛ لبيان أنّ الآياتِ هي سحرٌ قويٌّ لا يُقاوم. أو أن يكون معناها: ذاهِبٌ زائِلٌ مُنقطِع لا يبقى؛ وذلك لتهوين شأن آيات الله، وتسفيه أمرها. ولا يمنع أن يقصدوا ذلك كلّه باختلاف القائل، فإنّ للنّاس طرائقَ في الوصف والبيان، فاستعمل النّظمُ هذه المفردة لبيان مقصود المُشركين جملةً، لا لبيان مقصود بعضهم، فهم يبحثون عن احتجاجٍ يُشَرعِنُ إنكارَهم، فوصفوا الآيةَ بأنّها ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ لتسويغ الإعراض عنها أمامَ أنفسِهم والنّاس.

تنوّع الاشتقاق لمفردة ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾:

مُفردات القرآن تكشف التّباينَ في المَـواقِـف، والاختلافَ بلفظ قرآنيّ واحد

تحتمل مفردة ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أن تكون مُشتقَّةً من فعل (مَرّ) الّذي هو مَجاز في الزّوال، والسّين والتّاء لتقوية الفعل؛ أي: لا يبقى القمر مُنشقًّا. والغرض: التّهوين، كأنّهم يقولون: لا بأس ستمُرُّ الآيةُ كما تَمُرُّ الخُدَع. وتحتمل أن تكون مُشتقَّةً مِنَ (المِرَّة) بكسر الميم؛ أي: القوّة، والسّين والتّاء للطّلب؛ أي: طُلِبُ لفعله مِرّة؛ أي: قوّة، والمعنى: هذا سحرٌ مُتمكِّنٌ معروف، له أمثلة سابقة[3]. فنَسبوا الآيةَ إلى سحرٍ مُتمكِّن نافِذ، في محاولةٍ منهم لتفسير وقعها العجيب على النّاس، فاحتملَتِ المفردةُ مَعنيين

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 410، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 399.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 410، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 399.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172.

مُتقابلين: إمّا سحرٌ زائلٌ لا بقاء له، وإمّا سحرٌ قويٌّ مُتكرِّرٌ مألوفٌ، وجاء اختيار مفردة ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ لبيان مَوقِفهم المُتباين، وما صدر عنهم تجاهَ الآيةِ الّتي رأوها، فلا يستطيعون إنكارَها، ولا يَقدرون على تصديقها، فجاءَت هذه المفردة بدلالتها الاشتقاقيّة لبيان مَوقِفين مُتباينين، بمفردة أرادتهما معًا.

نوع الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ تحتمل الاستئنافَ[1]، والمعنى: أنَّ التّكذيبَ واتّباع الأهواء عادتُهم ومَسلَكٌ راسخٌ فيهم. وتحتمل العطفَ، ونُكْتَتُه التّنبيهُ على عادتهم القديمة؛ فالاستئناف والعطف مُتّفِقان على بيان أنّ التّكذيب واتّباع الأهواء عادةٌ راسخةٌ فيهم.

الاستئناف والعطف مُتّفِقان على بيان عادتهم في التّكذيب واتّباع الأهواء

بلاغة عطفِ صيغة الماضي على المضارع:

عُطِفَتِ الجملة الخبريّة ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ على الجملة الشّرطيّة: ﴿يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ﴾، وكان حقُّ المعطوف على الشّرط أن يأتيَ بالمضارعةِ مِثلَه؛ لأنّ الأصل في الشّرط والجواب الاستقبال، فكذلك ما عُطِف عليهما؛ لأنّه في حيِّزهما، فعُدِلَ إلى الماضي ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّكذيبَ واتّباعَ الهوى من عاداتهم القديمة، فهو شأنٌ نفسيٌّ مُستَبِدٌّ بهم، فلا يتوقَّفُ على مضمون الجملة الشّرطيّة قبله، فهم مُعانِدون مُتَّبعون لأهواهم، وإنْ لم تأتِهم آية، فعَدلَ إلى الماضي للتّنبيه على قبحِهم وذمِّهم بالدّليل والحُجّة، فكأنّه قيل: هم قومٌ قبيحون في تكذيبهم واتّباع أهوائهم، بدليل أنَّهم إنْ يَروا آيةً يُعرضوا ولا يَهتدوا، وأيضًا: للتّنبيه على أنّ الشّرط له مَدخلٌ في التّكذيب، وأنّ التّكذيب مُستمِرٌّ، له معنى الاستقبال بالإصرار والدّوام عليه كمعنى الشّرط[2].

التّكذيب واتّباع الأهواء مَسلَكٌ راسخٌ للمُشركين وسلوكٌ دائمٌ

(1) صافي، الجدول: 14/ 64.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 310، 311.

بلاغة الحذف التّقابليّ:

التّكامل في التّقدير خصيصةٌ يقود لها حُسنُ النّظرِ في النّظم الجليل

في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾ شِبهُ احتباكٍ، يتمثّلُ في الجمع بين وصف حال المُشركين في الماضي والمُستقبل في آنٍ واحدٍ، فيَظهر استمرارُ تكذيبِهم وإعراضِهم عبرَ الزّمن دون تغيير، وتقدير المُحذوفات كالآتي: في جانب المُستقبل جاء قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾، فالمَذكور الإعراضُ، والمحذوف المقدر: سيُكَذِّبون ويَتَّبعون أهواءَهم. وفي جانب الماضي جاء قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾، فالمذكور: التّكذيب واتّباع الأهواء. والمحذوف المُقدَّر: قد رأوا الآياتِ فأعرضوا وقالوا: سحرٌ مُستمرٌّ، فصار المعنى الكامل مستقبلًا: (وإنْ يرَوا آيةً يعرضوا ويقولوا سحرٌ، ويكذِّبوا ويتَّبعوا أهواءَهم)، ماضيًا: (وقد رأوا الآياتِ من قبل، فأعرضوا وقالوا: سحرٌ مُستمرٌّ، وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءَهم)، فذُكِر في كلِّ مَوضِع بعضُ الأركان، وحُذِف نظيرُه اعتمادًا على ما ذُكِر في الجانب المُقابِل[1]. هذا، والتّعبير هنا من قبيل (شِبْه الاحتباك)، إذ وقع التّبادلُ بين الذّكر والحذف في مقامَي الماضي والمُستقبل، فشابَه الاحتباكَ من حيثُ البُنية والصّورة، لكنّه لم يَبلغ رتبةَ (الاحتباك التّامّ)؛ لافتقاده وحدةَ السّياق والزّمان الّذي يقوم عليها الاحتباك.

مناسبة العطف وفائدتُه:

عَطْفُ العِلّة على المَعلوم يدفع وهْمَ المعاني غيرِ المُرادة

عَطْفُ اتّباعِ الهوى على تكذيبهم في قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾؛ من عطف العِلَّة على المَعلول؛ لأنّ تكذيبَهم لا دافعَ لهم إليه إلّا اتِّباعُ ما تهواه أنفسُهم من بقاء حالِهم على ما ألِفوه وعَهِدوه واشتَهَرَ دَوامُهُ، فهو لدَفْعِ توهُّم أنّ تكذيبَهم قد يكون حقًّا؛ إذْ ليس كلُّ تكذيبٍ باطلًا! فتكذيبُ غيرِ الحقِّ مِنَ الحقّ! فنبَّه تعالى بقوله:

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ على أنّ تكذيبَهم باطلٌ وعدوان، وليس لهم حقٌّ واعتبارٌ فيه مِثقالَ ذرّة[1]. فكان في ذلك إخبارٌ عن أنّ تكذيبهم لاتّباع الهوى، لا لِشُبهةٍ في استشكال الحقّ[2].

نُكتَةُ جمعِ الأهواء:

تـعـدُّدُ الأهـواءِ علامةُ التَّشتُّت ودليلُ الضّياع

آثَر النّظمُ الكريم جمعَ لفظِ الهوى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، ولم يَقُل: (واتّبعوا الهوى)، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾ [النّجم: 28] بإفراد الظَّنّ؛ وذلك أنَّ الهوى اسمُ جنس يَصدُقُ بالواحد والمُتعدِّد، فعَدَلَ عنِ الإفراد إلى الجمع فقال: ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ لِمُزاوَجة ضمير الجمع المُضاف إليه في لفظ: ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ وللإشارة بجمع الأهواء إلى أنّ لهم أصنافًا مُتعدِّدةً مِنَ الأهواء؛ من حُبِّ الرّياسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهُمُ اللّه، ومن حُبِّ اتِّباع مِلَّة آبائهم، ومن مَحبَّة أصنامِهم، وإلفٍ لِعوائدهم، وحِفاظٍ على أنَفَتِهم[3].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾:

الـهـوى المُتَّبـع ديـنُ أهـلِ الضّلالة ومِنهاجُ الـغـارقـين في الدَّنيا

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شَبَّهتِ الآيةُ الأهواءَ بقادةٍ يُتَّبعون، وحُذِفَ المُشبّه به ورُمِزَ له بأنّه يُتَّبع، فالاستعارة تصويرٌ للمُشركين بأنَّهم يسيرون في طريقٍ تابعين فيه الأهواءَ في شتاتٍ وضياعٍ مُضلٍّ، وإسنادُ فعلِ الاتّباع إلى الضّمير العائد على المُشركين دليلٌ على إرادتهم اتّباعَ الأهواء عن قصدٍ، ففيه عدالةُ الجزاء لِمَن اختار هواه مَتبوعًا له، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ [الفرقان: 43].

نوع الإضافة ودلالتُها:

أُضيفَ لفظُ الأهواء إلى الضّمير ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ لتخصيص

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 97.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172، 173.

تلك الأهواء بهم، فالإضافة بمعنى اللّام؛ أي: أنّها ليست أهواءً موضوعيّة أو مَقبولةً في نظر العقلاء، وإنّما هي أهواءٌ صادرةٌ عن نفوسهم هم بالذّات، مرتبطةٌ بشهواتهم وحظوظهم، فهم أسرى أهوائهم الخاصّة، والإضافة هنا تُشعِر بالذّمّ والتّقبيح؛ لأنّ اتّباع الهوى إذا نُسِبَ إلى النّفس دلَّ على الانغماس في الباطل والانقياد للشّهوة دون هدى.

هـوى النّـفس مَـكـينٌ لا يـزول إلّا بإرادة البحث عـن الـدّيـن القويم

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ تحتمل أن تكونَ للاستئناف؛ فالجملة مُستأنَفة لتقرير بُطلانِ ما قالوه مِنَ التّكذيب واتّباعِ الهوى، ولإقناطهم ممّا عَلَّقوا به أمانيهم الفارغة، من عدم استقرار أمرِه ﷺ، حيثُ قالوا: سِحر مُستمِرٌّ، ببيان ثباته ورسوخه؛ أي: وكلّ أمر مِنَ الأمور مُنتهٍ إلى غاية يستقرُّ عليها لا محالة، فالخير يستقرُّ بأهل الخير، والشَّرّ يستقرُّ بأهل الشّرّ[1]. وتحتمل أن تكون للعطف؛ بجعل الجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، والمعنى: اقتربَتِ السّاعة، وانشقّ القمرُ، وكلُّ أمرٍ قد استقرَّ، فاجتمعَت هذه الأمور الثّلاثة: قربُ السّاعة، وانشقاقُ القمر، واستقرارُ كلِّ أمرٍ. ويكون ما بين الجملتين اعتراض[2]. ووظيفةُ الاعتراض أن يقطعَ سياقَ الخبرِ الرّئيس (اقتراب السّاعة وانشقاق القمر واستقرار الأمور) ليُدْخِلَ وصفًا لحال المخاطَبين مع هذه الآيات، وهو قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، فأقحم وصفَ عنادهم بين الخبرَين الرّئيسَين المَعطوفَين؛ لتسجيل التّباين بين وضوح الآيات وفساد مَواقِفهم، وتبيين أنّ استقرار أمرهم على الخيبة إنّما هو ثمرةُ تكذيبِهم وإعراضهم.

إبـــرازُ الـعِـنـاد يزيد المُفارَقةَ بين وضـــوح الآيـات وفسادِ المَواقِف

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 288.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 312.

نُكْتَة استعمالِ لفظِ العموم (كلّ):

كـــلُّ شـــأنٍ مَـردُّهُ إلى غاية مَحتومة يستقرُّ عندها

أفاد لفظُ العموم (كلّ) في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ الاستغراقَ؛ أي: أنّ جميع الأمورِ من إيمانٍ وكفر، وخيرٍ وشرّ، وحقٍّ وباطل، لها غاية ثابتة لا محالةَ، فيستقرّ الحقُّ على نصره، والباطلَ على خيبته.

دلالة المَجاز بالعموم:

كلُّ أمرٍ مُنتهٍ إلى مآله في الدّنيا والآخرة

في قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ مَجازٌ بعموم المَجاز؛ لأنّ الأمرَ أعمُّ مِنَ الموجود الآن، فيشمل ما وُجِد بالفعل، ويشمل المَعدومَ الّذي سيَثْبُت ويستقرُّ حتمًا فيما بعد[1]. فقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يقتصر على الأمور الحاصلة الآن، بل يشمل الحقائقَ الثّابتة، كتكذيبهم الآن، والنّتائجَ المُترتِّبة عليها، كعقوبتهم الآتية، وظهورِ الحقّ، وهلاكِ الباطل. فـ(كلّ أمرٍ) له قرار؛ أي: مآلٌ نهائيّ يستقرُّ عنده، في وقته المُقدَّر له، سواء أدركه المُشركون وقت نزول الآية، أم لم يُدركوه. وهذا الاستقرار قد يكون: ثباتًا في الدّنيا (كنصر الحقّ، أو خُذلانهم)، أو في الآخرة (كاستقرار أهل الحقِّ في الجنّة، وأهلِ الباطل في النّار). فكأنّه قيل: كلّ أمرٍ دنيويّ أو أخرويّ له قرارٌ وثبوتٌ في الحال والمآل، فيَحيْقُ بأهل الخير ويحيق بأهل الشّرّ، فالخيرُ مُستقِرٌّ بأهله في الجنّة، والشّرُّ مُستقِرٌّ بأهله في النّار[2].

غرضُ تنكير لفظ ﴿أَمْرٍ﴾:

جـمـيـع شـؤون الـخَـلْـقِ تجري إلى تقدير العزيز العليم

نُكِّر لفظُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ للتّعميم؛ أي: كلُّ شأن من شؤون الخَلْق والجزاء وإجابة الدّعوة أو ردّها، صغيرًا كان أم كبيرًا، مصيرُه إلى الاستقرار الّذي قضاه الله، فلا يخرجُ عن حُكمه تعالى ومُراده، والأمر واحدُ الأمور، لا واحدُ الأوامر.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 114.

توجيه القراءات القرآنيّة:

قرأ الجمهور: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ بالرّفع، وهي جملة خبريّة مُستقلَّة، تُفيد تقريرًا كليًّا؛ كلُّ أمر ثابتٌ إلى غايته، وهذا أعمُّ وأشمل في تعميم اليقين وتقويته، ولذلك فهي جارية مَجرَى المَثل والقانون العامِّ المُطّرِد، وقرأ أبو جعفر: ﴿مُّسْتَقِرِّ﴾ بالجرِّ، على أنَّ (كلّ أمر) معطوفٌ على السّاعة؛ والمعنى: اقتربَتِ السّاعة، واقترب كلُّ أمرٍ مُستقِرٍّ[1].

كـلُّ أمـرٍ مستقرٍّ يقترب من مآله مـع اقـتـراب السّاعة

دلالة التّعبير بلفظ ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ مادّةً وصيغةً:

جاء التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ من استقرّ؛ لِما يُفيده من معنى المبالغة في الثّبوت؛ لأنَّ زيادة السّين والتّاء تفيد قوّة الفعل؛ أي: ليس قرارًا مُحتمَلًا بل راسخًا مَحتومًا[2]، وتدلُّ مادّةُ اللّفظ مع دلالة صيغة اسم الفاعل على اللّزوم والدّوام والاستمرار، فكلُّ أمرٍ لا بدَّ أن يبلغَ نهايتَه ويستقرَّ فيها، من غير تردُّد ولا رجوع[3].

كـلُّ أمـرٍ يتّجه إلى نهايته بثبات ورسوخ

بلاغة التّذييل وفائدته:

التّذييل بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ تقريرٌ لمضمون ما قبله، يجمع بين التّهديد والطّمأنة، والوعدِ والوعيد، ويؤسِّس لقاعدة كونيّة عظيمة، وسنّةٍ من سنن الله لا تتخلَّف: أنَّ كلَّ أمرٍ في الوجود، سواء ما وقع منه أم ما هو في طَور الغيب، له مُستقرٌّ محتومٌ يستقِرُّ عنده في الوقت الّذي قدَّرَه الله له. وقد جاءت كلمة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ في سياقِ مَجازٍ بعموم المَجاز[4]؛ لتدلَّ على أنّ الأمورَ كلَّها، من خيرٍ وشرّ، حقٍّ وباطل، نصرٍ وخُذلان، كلّها سائِرة إلى غاياتِها المَرسومة، لا تتخلَّف ولا تتقدَّم، وهذا يُشعِر بأنّ تكذيب المُكذِّبين ليس نهايةَ المَطاف، وأنّ

ربـطُ اسـتـقـرار الأمـــور كـلِّـهـا بنهاية العالَم للجزاء

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311، 312، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 174.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 72/ 174.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قر).

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311.

اتّباعَهم للهوى لا يغيِّرُ من مآلات الأمور شيئًا، فلكلِّ حقٍّ يومٌ يَظهر فيه، ولكلّ باطلٍ أجلٌ يُقبَر فيه، ويتلاشى عنده. ففي التّذييل بهذه الجملة تقريرٌ لحتميّة المصير، وأنّ التّكذيب واتّباع الهوى لا يُغيّران من سُنن الله في استقرار الأمور وانكشاف العواقب شيئًا.

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة:

في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرٌّ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ مَكنيّةٌ، شبّه اللهُ تعالى حركةَ الأمور في العالَم، كالتّكذيب والحقِّ والباطلِ والعواقبِ، برحلةِ شخصٍ يسير نحو مكانٍ مُحدَّدٍ، يقترب حينًا ويبتعد حينًا، حتّى يبلغَ المَوضِعَ المُعيَّن له ويَستقرَّ فيه. وهذه الصّورة الكاملة حُذِفت، وأُشير إليها بكلمة ﴿مُّسۡتَقِرٌّ﴾، فكانت استعارةً تمثيليّةً مكنيّةً. فصار هنا تمثيلٌ مَكنيٌّ: شبّه الحالةَ بمعنًى مُركَّبٍ (رحلة السّائر)، ثمّ حُذف المُشبَّه به، وأُبقيت كلمةٌ واحدة ترمُز إليه، وهي ﴿مُّسۡتَقِرٌّ﴾. ووَجْهُ الشَّبَهِ أنّ كلًّا من (الأمر) و(السّائر) يتحرّك نحوَ غايةٍ مُقرَّرة له، وقد يتأخَّر أو يتقدَّم، لكنّه يستقرُّ في النّهاية في مَوضِعه المَحتوم[1].

اتّباع الهوى لا يُغيّر سُننَ الله في عواقب الأمور

نوع الواو ودلالتُها:

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أن تكون للاستئناف، فبعد أن ذكر تكذيبَهم واتّباعَهم الأهواءَ، استأنف الكلامَ بذِكر أمرٍ آخر يزيدهم توبيخًا وتقريعًا، وهو أنَّه قد جاءهم ما فيه زجرٌ لسلوكهم ومُعتقدهم، وتحتمل أن تكون عاطفةً الجملة على جملة ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، وفي هذا العطف معنى الاستدراك الضّمنيّ على مَن يتوهَّم أنّ تكذيبَهم ربّما حصل بسبب أنّ ما جاءهم لم يكن كافيًا في إقناعهم[2]، فأكّد هنا

مـمّـا يـزيـد من تبكيت المُعانِدين وتقريعهم أنّه قـد جـاءهـم الزّاجر

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 173.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

تلك المُفارقةَ، وهو أنّهم تلقَّوا ما يكفي لزجرِهم وردعهم، من أنباء فيها عبرٌ وعِظات، إلّا أنّهم مع ذلك كذّبوا واتّبعوا الهوى! فأُعطوا من وسائل الهداية أقواها، ومع ذلك لم يرتدعوا، بل أصرّوا على التّكذيب والهوى. والرّبط بين الجملتين يُظهر أنّ الضّلال لم يكُن عن جهل، بل عن عناد واختيار، وأنّ الحُجّةَ قامَت، لكنّهم انحازوا للهوى، مع التّذكير بأنّ الأمرَ سيستقرُّ وتنكشِفُ عواقبُه في النّهاية. فهو عطفٌ فيه تقريرٌ للحُجّة، وإدانةٌ للغَفْلة.

نوع اللّام ودلالتُها:

عناية الله بإقامة الحُجَج قاطعةٌ أعذارَ المُكذِّبين

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ لامُ جواب القسم الدّالّةُ على حذفِه، والتّقدير: (واللّه لقد جاءَهم)، ويصحّ أن تكونَ اللّام لتوكيد الإثبات، فالجملةُ مُؤكَّدةٌ بها كتوكيد القَسَم، وليسَت بقَسَم[1]. وعلى كُلٍّ فتصديرُها بالقَسَم أو التّوكيد فقط، مع التّحقيق بـ(قد) - يدلُّ على إبراز كمالِ العناية بمضمون الجملة.

بلاغة المَجاز العقليّ:

الحُجّة الإلهيّة بلغَتِ القلوبَ واضحةً فلا عذرَ في الإعراض عنها

إسناد فعلِ المجيء إلى ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ مَجازٌ عقليٌّ، والمراد أنّها أُبلغَت إليهم وبَلغَتهم بوساطة الرّسول، فالّذي جاءهم بما فيه مُزدجَر هو رسولُ اللّه ﷺ، إذِ التَّرهيب لا يأتي بذاته، بل يأتي به ناقلُه ومبلِّغُه، ووجهُ البلاغة في ذلك: أنّ الإسنادَ تجسيدٌ وتصويرٌ للأمر الزّاجر، مبالغةً في وضوح الحجّة وقربها، فلا يُعذرون في الإعراض عنها.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

(من) في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ تحتمل التّبعيضَ[2]؛ أي: جاءهم بعض الأنباء الّذي فيه مُزدجَر. فبعضها ترهيبٌ وزجرٌ،

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النحو: 4/ 181.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.

الـزّجـر المـانِـع عـنِ الـتّـمـادي في الـشّرك بيانٌ لـبـعـض أنـبـاءِ القرآن

وبعضُها ترغيبٌ وذِكرٌ. وإنّما خصَّ هنا المُزدجَر منها؛ لسياق التّكذيب والإعراض واتّباع الهوى، وتحتمل التّبيين؛ لبيان قوله: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، بتقديم المبيِّن على المُبيَّن. بناءً على المختار من جواز تقديمه على المُبيَّن، وإنّما جاز تقديم (من) المبيِّنة على المُبهَم في نحو - عندي مِنَ المال ما يكفي -؛ لأنّ المُبيِّن في الأصل صفةٌ لمُقدَّر؛ أي: شيءٌ مِنَ المال، والمذكور (المُبيِّن) عطفُ بيانٍ للمبيَّن المُقدَّر قبل (مِن)؛ ليحصلَ البيانُ بعد الإبهام[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْأَنۢبَآءِ﴾:

الـزّجـرُ المـذكـور مخصوصٌ بأنباء الوعيد والتّهديد

(أل) في لفظ ﴿ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ للعهد الذّهنيّ، فهي أنباء القرآن في شأن القرون السّالفة، وتوجَّه على أنَّها عوضٌ عن مضاف إليه محذوف، تقديره: أنباء القرون الخالية، وهي أنباء التّعذيب والوعيد، أو أنباء السّاعة (الآخرة)[2]، أو أنباء الآيات الكونيّة، كانشقاق القمر، أو أنباءُ آياتِ الوحي وهو القرآن.

بلاغة اختيار مفردة النّبأ:

السّياق هو الّذي يجتبي الألفاظَ، ويُـنـادي على المقصود

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ لأنّ المقامَ مقامُ تهويلٍ وزجرٍ، ولأنّها أنباءٌ عظيمةٌ عن مَصائر الأمم المُكذِّبة، وليست مُجرَّدَ أخبار تاريخيّة ولا أحاديث مُتداوَلة، فلو قيل: (جاءهم مِنَ الأحاديث)، لكان المعنى: ما يتحدَّث به النّاسُ أو ما يتداولونه من قصص، وهذا يُشعِر بهَوان المَقام، بل قد يحمل معنى ما لا يوثَق به. وسياقُ سورة القمر مَقامُ إنذارٍ وتهويلٍ، فلا يناسبُه لفظُ (الأحاديث) الّذي يوهِم بالقصص المُتداوَلة. ولو قيل: (الأخبار) لكان المعنى: مُجرَّدُ أخبارٍ مَنقولة. و(الخبر) لفظ عامّ، لا يقتضي

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 312.

العظَمةَ، ولا يُثيرُ الرّهبة بالضّرورة. والآية تريد أن تبيّنَ أنّ ما جاءهم ليس أخبارًا عاديّةً، بل حقائقَ جليلةً هائلةً فيها عِبرة وزجر.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ إمّا موصولةٌ، وهو الظّاهر، وإمّا نكرةٌ موصوفةٌ؛ أي: جاءهم شيءٌ فيه مُزدجَر، وعلى القولَين هي فاعل ﴿جَآءَهُم﴾[1].

بلاغة صيغة ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

المُزدجَر: مصدرٌ ميميٌّ، وهو مُصاغ بصيغة اسم المفعول الّذي فعلُه زائدٌ على ثلاثة أحرف (مُفْتَعَل). وازدَجَرَه بمعنى زَجَرَه، ومادّة (الافتعال) فيه للمُبالغة، والدّالُ بدلٌ من تاء الافتعال الّتي تُبدَلُ بعد الزّاي إلّا مثلَ ازدادَ؛ أي: ما فيه مانعٌ لهم من ارتكاب ما ارْتكبوه[2]، والمصدرُ الميميُّ يدلُّ على مُنتهى الحَدَث وغايته، ويَحمِلُ معه عنصرَ الذّات، فهو يدلُّ على الحدث نفسِه (الزّجر)، ويدلُّ على الغاية منه، وهو الزّجر الشّديد القاطِع، ويستصحب ذاتًا، وهي الآيات الزّاجرة، والإنسان المُستهدَف بها[3]، ويصحّ أن يكون ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ اسمَ مكان مَجازيّ؛ أي: الأنباء كانَت لهم مَوضِعَ زجرٍ[4].

الزّجرُ القرآنيُّ هو أعلى مَراتِب البيان بما لا يَحتمل التّأويل والنّكران

دلالة تاء الافتعال في ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

﴿مُزْدَجَرٌ﴾ على وزن (مُفتَعَل)، صيغة اسم مَفعول من فعل (ازدجر)، على زِنَة: (افتعل)، مِنَ (الازدجار) على زِنة (الافتعال). ومن قواعد الصّرف: أنّ تاء الافتعال تتحوّل إلى دال إذا وقع قبلها زاي أو دال، تخفيفًا في النّطق. فبدل أن نقول: ازتزجر، صارت ازدَجَر (قُلبَتِ التّاء دالًا بعد الزّاي). وهذا يحدث في أفعال مثل:

ليس بعد زجرِ القرآن زاجرٌ

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 137.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 31.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

(ازدَكَر) (أصلها: اتذَكَر)، و(ازدَجَر) (أصلها: اتزَجَر). وصيغة (الافتعال) - هنا - تُضيف معنى المبالغة والقوّة والشّدّة في الزّجر[1]. فالمعنى: ليس مجرَّدَ زجر، بل زجرٌ شديد وقاطع؛ أي: أنّ الأنباءَ الّتي جاءَتهم تحوي زجرًا شديدًا يمنعُهم لو عقلوا، لكنّ ذلك لم يُؤثِّر فيهم بسبب عنادهم.

غرضُ تنكير ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

تنكير ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ يفيد التّعظيمَ والتّهويل لشأن الزّجر الكامِن في تلك الأنباء.

بلاغة فنِّ التّجريد:

المبالغة في زجر الكافرين لم يزدْهم إلّا بُعدًا عنِ اليقين

جاء لفظُ الازدجار مظروفًا في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ دون أن يقول: (ما هو مزدجر)، على معنى: (جاءهم مُزدجَرٌ مِنَ الأنباء)، وهو شبيهٌ بقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]. فـ﴿أُسْوَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] تعني: قدوة، وكان يمكن أن يُقالَ: (لقد كان رسول الله لكم أسوة)[2]، وهذا على التّجريد، وهو نزعُ صفةٍ عن صاحبها ثمّ جعلها شيئًا مُستقِلًا، كأنّها شيءٌ قائمٌ بنفسه داخلَ الموصوف[3]، وذلك ليَدلَّ على أنّ الزّجرَ ليس شيئًا عارضًا، بل كأنّ الأنباءَ تفيض به وتُحاط به.

نُكْتَة تقديم الجارّ والمجرور على ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

زواجر الباطلِ مليئة في القرآن مُكتنِزة في تراكيب البيان

قُدِّم ذِكر الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ لنُكْتَة بلاغيّة رفيعة، وهي إفادة التّخصيص[4]، كأنّه قيل: في هذه الأنباء خاصّةً مُزدجَرٌ لهم. فلو قيل: (ما مُزدجَر فيه) لَكان المعنى عامًّا، لكن لمّا قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على المبتدأ ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ أفاد أنّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(3) حسن، البلاغة العربيّة: 2/ 434.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

الزّجرَ كائنٌ في ذاته، كامِنٌ في مضمونه لا في غيره، وكأنّك تقول: ما مُزدجَرٌ إلّا في هذا الّذي جاءَهم مِنَ الأنباء. فأفاد التّقديمُ الحصرَ أيضًا؛ أي: أنّ هذه الأنباء هي مَظنّة الزّجر ومحلُّه دونَ غيرِها. وأفاد التّوكيد أنّ الزّجرَ ثابتٌ ومُتحقِّقٌ، ومَغروزٌ في هذه الأنباء، لا انفكاكَ له عنها. وهذا يتناسق مع نُكْتَة التّجريد، فتقديم ﴿فِيهِ﴾ يُعزِّزه.

علّةُ فصل ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾:

الفصل لكمال الاتّصال أو للاستئناف

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ لأنّه بدلٌ من ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: جاءتهم حكمة بالغة[1]؛ فهو كمال اتّصال، أو استئناف خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو حكمةٌ بالِغةٌ[2].

غرضُ تنكير لفظ ﴿حِكْمَةٌ﴾:

تفخيم الحِكمة وتعظيمها

نُكِّر لفظ ﴿حِكْمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ للتّفخيم، وأنّها حكمةٌ فائِقةٌ لا مزيدَ عليها، وللتّعظيم وتكثير النّوع؛ أي: هي حكمةٌ مُتجدِّدة كثيرة الأنواع، لا يُحاطُ بها[3].

بلاغة استعمال مفردة ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ مادّةً وصيغةً:

حكمةُ الله كاملةُ المضمون بالغةُ الإحكام

جاءت كلمةُ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ صفةً لحِكمة في قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾، وهي من حيثُ المادّةُ تدلُّ على الوصول والانتهاء إلى الغاية[4]، وأنَّ الأنباءَ الّتي هي آياتُ الله غايةٌ في تقرير الحُجج، وتامّةٌ في دفع الإلباس والظّنّ[5]، وليَدلَّ بالوصف على أنّه ما مِن شيءٍ يَحكُمُ اللّهُ تعالى به إلّا وكان مَبناه على الحكمة الكاملة، فلا يَعتورُه نقصٌ، ولا يفتقر لتكميلٍ أو تعقيبٍ بالنّقد والاستدراك. ومن جهة الصّيغة فهي اسم فاعل مؤنّث تُفيد كون الحكمة واصلةً إلى أقصى مَراتِبها،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(2) صافي، الجدول: 14/ 64.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 313.
(4) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(5) القصاب، النّكت الدّالّة على البيان: 4/ 206.

فقد بلغَتِ الغايةَ في الإحكام والكمال، لِما لاسمِ الفاعل من دلالةٍ على تمكُّن الوصف وثبوته[1]. فالوصف بالبلوغ يُفيد تمامَها بعدم النّقص، وإحكامها بنزاهتها عنِ الاحتمال والتّبدّل[2].

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلَّق ﴿بَٰلِغَةٌۖ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿بَٰلِغَةٌۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ﴾؛ لإفادة الإطلاق والتّعميم؛ أي: أنّ الحكمةَ قد بلغت غايتَها في ذاتها كمالًا ووضوحًا، وبلغت غايتَها في وصولها إلى المُخاطَبين، فاجتمع لها تمامُ الكمالِ في حقيقتها، وتمامُ البلاغِ في نفاذِها. فحَذْفُ المفعولِ أتاح شمولَ الوجهَين معًا[3].

كمال الحِكمة في ذاتها، وكمال وصولها إلى المُخاطَبين

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ تفريعيّة؛ إمّا على قوله: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ﴾؛ لترتيب عدم إغناء النُّذُر على مجيء الحكمة البالغة مع كونها مُستوجِبةً للإغناء والاكتفاء[4]. وإمّا تفريعيّة على جواب القَسَم المُتقدِّم في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾[5]؛ أي: باللّه لقد جاءَهم كائنٌ مِنَ الأنباء ما فيه ازدجار لهم[6]، فما أغناهم ذلك، وما كفاهم. فالفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الأنباء.

الحكمة البالغة للعقول البالِغة، لا للعقول الواهمة

نوع (ما) ودلالتُها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ إمّا نافية على الإخبار، وإمّا استفهاميّة على الإنكار[7]. فالمعنى على احتمال النّفي؛ أي:

تحتمل (ما) النّفيَ على الإخبار، أو الاستفهامَ على الإنكار

(1) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 41.
(2) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 705.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 411، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 312.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 168، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(5) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 139.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 164.

لا تُغني عنهم النُّذُرُ شيئًا. فمفعولُ ﴿تُغْنِ﴾ محذوف[1]؛ فيكون تمهيدًا لقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، فالمضارع المَنفيّ ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ للحال والاستقبال؛ أي: ما هي مُغْنية، ويفيد بالفحوى أنّ تلك الأنباءَ لم تُغْنِ عنهم فيما مضى بطريق الأحرى؛ لأنّه إذا كان ما جاءَهم مِنَ الأنباء لا يُغني عنهم مِنَ الانزجار شيئًا في الحال والاستقبال، فهو لم يُغنِ عنهم فيما مضى؛ إذ لو أغنى عنهم لارتفع اللّومُ عليهم[2].

والمعنى على الاستفهام الإنكاريّ: ماذا تفيد النُّذُرُ في أمثالهم المُكابرين المُصرّين، أي: لا غِناءَ لهم في تلك الأنباء، فـ (ما) على هذا في محلّ نصبٍ على المفعول المُطلَق لِفعل (تُغني)، وحُذِفَ ما أضيفت إليه (ما). والتّقدير: فأيُّ غِنًى تغني النُّذُر عنهم[3]؟!.

بلاغة التّعريض في مفردة ﴿تُغْنِ﴾:

تدلُّ كلمة ﴿تُغْنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ على الكفاية والمنع مِنَ الحاجة[4]، فالنّفي هنا يُبرز أنّ النُّذرَ لا تَملِكُ دفعًا ولا كفايةً، والتّعبير بهذه المفردة فيه إيماءٌ إلى أنَّ شأن النُّذُر أن تُغني طالبَ الحقِّ فتورّثه الفهمَ والعلمَ بما يرعَوي به عنِ الباطل والغَيّ واتّباعِ الهوى، ففيها تعريض بمَن أغنته النُّذُر، وتصريحٌ بمَنِ استغنى عنها.

النُّذُر تُغني أصحاب العقول الرّاقية ويستغني عنها فاقدو القلوب الصّافية

بلاغة التّعريض في مفردة ﴿تُغْنِ﴾:

جاءت مفردة ﴿تُغْنِ﴾ بصيغة المضارع في حيّز النّفي؛ لتُفيدَ الاستمرار والتّجدُّد؛ أي: أنّها لا تُغني في أيّ وقت أو حال. فنفيُ الإغناء بالمضارع يُصوِّر عجزَ النُّذُر المُطلَق والمُتكرِّر عن أن تُجْدي

تجدُّدُ الإغناءِ مَنفيٌّ عنِ الأثر لا الواقع

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في الإعراب: 27/ 138.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 313، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غنا)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غنى).

أو تكفي في ردّهم عنِ العِناد[1]، وفيه بيانٌ لحال المُعرِضين، وأنَّهم بلغوا مرحلةَ الرّان على القلوب، بحيثُ مهما استجدَّ لهم مِنَ النُّذُر، فإنّهم مُعانِدون مُكابِرون، فالنّفيُ تسلَّطَ على تجدُّد الإغناء؛ لإفادة ثباتهم على الباطل.

توجيهُ لطيفةِ حذفِ الياء:

سـقـوطُ حـرفِ الياء إيماءٌ إلى سـقـوط حـظِّ المُشرِكين

فعل ﴿تُغۡنِ﴾ مضارعٌ مرفوع، حُذِفَت منه الياء رسْمًا من غير موجِبٍ كجزمٍ وغيره، اتّباعًا لسُنَن المَصاحِف، ومراعاةً لحال الوصل عند التقاء السّاكنين الّذي يَستوجِب الحذف، فطوبق الرّسمُ بالنّطق وصلًا[2]، وفي الحذف لطيفة إشاريّةٌ خفيّة تشير إلى شدّة النّفي وقَطعِ الأمل من أيّ فائدةٍ للنُّذُر مع أصحاب العقول العنيدة، فحُذِف حرفُ المَدّ ليطابقَ معنى الانقطاع والعدم، إيماءً إلى عدم جدوى النُّذُر معهم[3].

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلّق الإغناء:

رُبَّ حذفٍ أورث مِـنَ المـعـاني ما لا تُفيدها ألفاظُ المَبَاني

حُذِفَ مُتعلّقُ فعلِ الإغناء في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾، فلم يُقل: عنهم أو عن عذاب الله ونحو ذلك؛ لإفادة الإطلاق والعموم، فالنُّذُر لا تُغني عنهم شيئًا البتّة، في أيِّ وجهٍ من وجوه النّفع أو الكفاية؛ فحَذْفُ المُتعلِّق أفاد إطلاقَ المعنى، فزاد في قوّة النّفي وعمومه، كما أنّه أكسب النّظمَ تحسيرًا عليهم، وتهكُّمًا بهم، فلِلحَذْفِ رسالةٌ تَفوق رسالةَ الذّكر، وله سلطانٌ على عقول الأفهام ما لا يُحيط به ضعفاءُ الأفهام.

بلاغة الاحتمال في مفردة ﴿ٱلنُّذُرُ﴾:

تحتمل أن تكون كلمةُ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 168.
(2) صافي، الجدول: 14/ 65.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

تعـــدُّد الاحـتـمـالات يُعاضِد معنى الاسـتـغـراق الشّموليّ

﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمعَ نذيرٍ - وهو الظّاهر، أي: (المُنذَر به)، وهي الآيات أو الإنذارات أو الرّسالات، ويؤيّده إسنادُ الفعل المؤنَّث في ﴿تُغۡنِ﴾ إليه. ويُؤيّده: أنّ الكلامَ على الأنباء والحكمة، وهي من مضامين الرّسالات والآيات، ويحتمل أن يكون ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمعَ نذير بمعنى المُنذِرين وهم الرُّسل، ويكون تأنيث الفعل ﴿تُغۡنِ﴾ مراعاةً للفظِ النُّذُر لا لمعناه. ويحتمل أن يكون ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ مصدرًا بمعنى الإنذار. ويُعترَض على هذا القول: أنّ الأصل في المصدر ألّا يُثنَّى ولا يُجمَع؛ لدلالته على الجنس. والجواب عليه: أنّه يجوز أن يأتيَ المصدر على صورة الجمع، إمّا على معنى المرّات كما في (قُعود) و(جُثوم) أُريد بهما القعدات والجثومات، وإمّا على معنى الأنواع: فيُجمَع باعتبار اختلاف أنواعه. كما أنّ ثَمّة تداخُلًا بين أوزان الجمع وأوزان المَصادر، بحيثُ قد يتبادلان الدّلالة. فكما يأتي جمعُ التّكسير على وزن المَصدر، كما في: سُجود وحُضور، جمع حاضِر وساجِد، رغم أنّهما في الأصل على وزن المصدر[1]. فيمكن للمصادر أن تأتيَ على أوزان الجموع كذلك. وعليه، فالاعتراضُ على المَصدريّة ليس قاطعًا[2].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾:

كلُّ إنذارٍ بحُكم المَـعـدوم عند صاحب القلب المَعدوم

(أل) في لفظ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ جنسيّة للاستغراق، وهي تفيد شمول كلِّ النُّذُر الّتي أنذرَتْهم مِنَ الرُّسل والكتب والآيات القرآنيّة والكونيّة قبل ذلك، فالتّعبير بـ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ بـ (أل) الاستغراق يُبرز أنّ جميع صور الإنذار، على كثرتها وتنوّعها، لا تُغني عنهم شيئًا، وهو ما يزيد من عنصر تبكيت القوم وتوبيخهم.

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 139.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 313، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.

نوع الفاء ودلالتُها الرّابطة:

متاركة المُعانِدين تفريعٌ على مَوقِفهم وإفصاحٌ عن واقعهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تحتمل أن تكون تفريعيّة على قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: أعرِضْ عن مُجادلتهم؛ فإنّهم لا تفيدُهم النُّذُر؛ أي: إنّك قد بلّغْت، فما أنت بمسؤول عنِ استجابتهم، وفيه تسليةٌ وتخفيفٌ وإعذارٌ تامٌّ للنّبيّ ﷺ ومراعاةٌ لخاطره[1]. وتحتمل أن تكون الفصيحة؛ أي: إذا كان الأمر كذلك فتولّ، فالجملة جواب شرط مُقدَّر، أو هي فاء السّببيّة[2]. وعلى مجموع الاحتمالات فالفاء نتيجةٌ للكلام السّابق، وفي مَدخولها معنى المُتاركة والموادعة؛ وذلك أنّه تعالى لمّا أخبر عنِ المُعانِدين، وأنّه بلغ إعراضُهم وتمرّدُهم بحيثُ إنْ يرَوا آيةً يقولوا: سِحرٌ مُستمرٌّ، وكرّر المعنى بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ لأنَّ الإعراض وقولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ تكذيبٌ ومتابعةٌ للهوى، ثمّ جاء بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ جملةً قسميّة حالًا مُقرَّرة لجهة الإشكال؛ أي: يُكذِّبون، والحال أنّه جاءَتهم حكمةٌ بالغة، ثمّ سجّل عنادَهم بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: بعد أن استعلمتَ حالَهم، وأنّهم لا يؤمنون البتّة، فتولَّ عنهم، وأعرض عنِ الإنذار؛ لأنّ الإنذارَ إنّما يفيدُ إذا انتفع به المُنذَر[3].

غرض الأمر ودلالتُه:

مَن أعرض عنِ الحقّ وُكِّل إلى عاقبة اختياره

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لتهديد المُكذِّبين؛ فهو تهديدٌ ضمنيٌّ لهم؛ أي: دَعْهم وما اختاروا، فسوف يَلْقَون عاقبةَ عنادهم. وللتّهوين على النّبيّ ﷺ؛ أي: لا تَحزن من إعراضهم، فقد بلّغْتَ الرّسالةَ. وعليه؛ فالأمر بالتّولّي كنايةٌ عن تسليمهم لله، وتركِهم لمصير الهلاك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 35، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 176.
(2) الخطيب، وآخرون، التّفصيل في الإعراب: 27/ 139.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 121.

تعيينُ المقصود بالخطاب ودلالتُه:

اجتماع الدّلالة الظّاهرة والإيمائيّةِ إيجازُ قَصْر

المخاطَب في الأمر ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هو النّبيّ ﷺ، ودلَّ الخطابُ على تسليته ﷺ وتثبيته؛ ليُعلَمَ أنّه أدّى ما عليه، ولم يُقصِّر في التّبليغ، كما أنّه دلَّ بالإيماءِ إلى تأنيب الكفّار، إذ وُجِّه الكلامُ للنّبيّ تسليةً، ولأعدائه توبيخًا؛ فدلَّ الخطابُ على تسلية النّبيّ ﷺ صراحةً، وعلى توبيخ الكافرين إيماءً.

بلاغة استعمال حرف (عن):

التّولّي عنِ المُعانِدين إعراضٌ مُستحِقٌّ وإغفالٌ حقيقٌ بهم

عُدّيَ فعلُ التّولّي بحرف (عن) في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ لإفادة المُجاوزة والانصراف الكلّيّ؛ أي: اجعل بينَكَ وبينهم حِجابًا، واصرف وجهَك عنهم تمامًا، وفيه مبالغةٌ في الإعراض، لِما فيه مِنَ الإيماء إلى معنى الإهمال والإغفال، ووضع المُتولَّى عنهم مَوضِعَ المَغفول عنه، غيرِ مُستحِقّ الالتفات، تنبيهًا إلى أنّهم لا يستحقّون أدنى التفاتٍ، كما فيه إيماءٌ إلى معنى الإعراض؛ أي: تولّى مُعرِضًا عنهم.

نُكْتَة الوَقفِ على ﴿عَنْهُمْ﴾:

انتهاءُ التَّبليغ أشدُّ إنذارٍ واجَهَهُ المُشرِكون لو كانوا يفقهون

حَسُنَ الوقفُ على الجارّ والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ لنُكْتَةٍ بيانيّة، وهي إفهام معنى القطع التّامّ، وهو الإخبار بانتهاء تبليغهم وإنذارهم، وتركِهم وما هم عليه مِنَ العناد، وتوطئةً للاستئناف: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾، كأنّ ذلك الجزاءَ هو عاقبة تولّيهم. وإذا وُصِلَ الكلام ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ أصبح المعنى تأجيلَ العقوبةِ إلى ذلك اليوم. وهذا ضعيف؛ لأنَّ تولّيه عنهم ليس مُغيًّا بيوم يدعُ الدّاعي[1]، ولإيهام الوصل أنَّ التّولية مأمورٌ بها يوم النّفخ في الصّور، فيُظنّ أنّ العاملَ في الظّرف هو (تولّ)،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 174.

كأنَّه قيل: فتولّ يوم يدع الدّاعي. وهو ضعيفٌ جدًّا لِبُعدِه[1]. أمّا الوقفُ على ﴿عَنْهُمْ﴾ فيَفْصِل الأمرَ بالإعراض عنهم عن مَشهَد القيامة.

مَوقِع الظّرف بناءً على الوقف والوصل:

التّذكير بوعيد القيامة بين يَدَي الإعراض عن المُعرِضين

بناءً على الوصل في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ – وهو وجه ضعيف – يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفَ زمان مُتعلِّقًا بفعل (تولَّ)؛ أي: أعرض عنهم إلى يوم القيامة، وعلى الوقف يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوبًا بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: اذكرْ يومَ يدعو الدّاع[2]، ففي الوقف تصويرٌ مَشهَديٌّ مُستقِلٌّ ليومِ القيامة أشدّ تهديدًا وأوقع في النّفس.

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

الوعيد المُرتقَب يتجلّى يومَ يُدعَى إلى أمرٍ نُكرٍ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنّ الأمر بالتَّولّي مُؤذِنٌ بغضبٍ ووعيدٍ، فمِن شأنه أن يُثيرَ في نفس السّامع تساؤلًا عن مُجمَل هذا الوعيد، ووقع الاستئنافُ مُعترِضًا بين جملة ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ وجملة ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾. وإذ قد كان المُتوعَّدُ به شيئًا يحصُلُ يومَ القيامة، قُدِّمَ الظّرفُ على عامله – وهو قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾؛ ليحصُلَ بتقديمه إجمالٌ يُفصِّلُه بعضَ التّفصيل ما يُذكَرُ بعدَه، فإذا سَمِعَ السّامعُ هذا الظّرفَ، عَلِمَ أنّه ظرفٌ لأهوالٍ تُذكَرُ بعدَهُ، هي تَفصيلُ ما أجمَلَهُ قولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مِنَ الوعيد، بحيثُ لا يَحسُنُ وقعُ شيءٍ ممّا في هذه الجملة هذا المَوقِعَ غير هذا الظّرف، ولولا تقديمُهُ لجاء الكلامُ غيرَ مَوثوقِ العُرى، وانظُرْ كيف جَمَعَ فيما بعدَ قولِه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ كثيرًا مِنَ الأهوال، آخِذٌ بعضُها بحُجَزِ بعضٍ بحُسن اتّصالٍ، يَنقُلُ كلٌّ منها ذِهنَ السّامعِ إلى الّذي بعدَه، من غير شعورٍ بأنّه يُعَدِّدُ له أشياءَ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 174، والسّمين، الدّرّ المَصون: 6/ 222.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 182، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 140.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 177.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع:

التّعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ يفيد استحضارَ الصّورة المستقبليّة؛ لتقريب مَشهَد الدّاعي حين يُنادي النّاس.

استحضارُ الصّورة المستقبليّة؛ وتقريبُ مَشهَد الدّاعي

نُكْتَةُ حذفِ واو ﴿يَدۡعُ﴾:

لفظُ ﴿يَدۡعُ﴾ رُسِمَ في المُصحَف بغير واو؛ اتّباعًا لقراءة الوصل بسبب التقاء السّاكنَين، ولفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾ رُسِمَ في المصحف بغير ياء للتّخفيف[1]. والحذف فيهما ليس لمُجرَّد التقاءِ السّاكنين والتّخفيف فحسب، بل له إيحاءٌ بيانيّ أيضًا، ففيه إيجازٌ صوتيّ يُضاهي رهبةَ المَشهَد وسرعةَ النّداء، كما أنّ الخِفّة والقطعَ في اللّفظ تعكِسُ نفاذَ الدّعوة وقَطعَها لعالَم الدّنيا، إيذانًا بالانتقال إلى هول القيامة. فالرّسمُ والقراءة اجتمعا على التّخفيف صوتًا، وأدَّيا معنى الرّهبةِ والسُّرعةِ دلالةً.

الحذفُ الصّوتيّ يُجسِّدُ رهبةَ النّداء وسرعةَ وقوعِه

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾:

تحتمل (أل) في لفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ مَعنَيين؛ العهد الذّهنيّ، أي: الدّاعي المعلوم عندَكم، وهو إسرافيلُ – على قول – الموكَّلُ بالنّفخ في الصّور والدّعاءِ إلى المَحشَر[2]. ولا يبعُدُ أن تكون (أل) لتعريف الماهيّة؛ أي: الدّاعي المَهيب في ذلك اليوم العظيم، فلا يحتاج إلى تعريفٍ آخر؛ لأنّه لا يَلتبسُ بغيره.

الدّاعي على الحقيقةِ هو داعي يوم القيامة

بلاغة جِناس الاشتقاق:

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ جناسُ الاشتقاق، وهو أن يأتيَ في الكلام لفظان، بينهما اتّفاقٌ في المادّة الأصليّة (الجذر) واختلافٌ في الصّيغة؛ فقولُه: ﴿يَدۡعُ﴾ فعل، وقولُه: ﴿ٱلدَّاعِ﴾ اسم، وكلاهما من

جناس الاشتقاق يجمع بين الفعل والفاعل لتأكيد المعنى والدّلالة

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 13/ 290، وصافي، الجدول: 14/ 66.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 13/ 290.

جذر (د ع و)، واختلفا في الصّيغة، وهو جِناس اشتقاق؛ لأنّه ليس تَكرارًا مَحضًا، ولا اختلافًا تامًّا، بل اشتراكًا في الأصل اللّغويّ مع اختلاف البُنيَة، فيجتمع فيه التّلازمُ الدّلاليُّ، والجَرْسُ البيانيّ.

بلاغة المَجاز بالحذف:

تهويلُ مَوقِفِ القيامةِ وتعظيمُ مآل المُجرِمين

حُذِف مفعول ﴿يَدۡعُ﴾، والتّقدير: (يدعوهم الدّاعي)؛ لدلالة ضمير ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على تقدير المحذوف في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾[1]، وفائدة الإيجاز بحذف المفعول الإسهامُ في تعظيم الهول؛ ليُلقيَ في نفس السّامع شعورًا بالمفاجأة والرّهبة، وتكثيفِ دلالة المُتعلّق ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾. فكأنّك أمامَ مَشهَدٍ يسمعُه السّامعُ، فيُبادِرُ بالسّؤال: (وما الّذي يُدعَى إليه) ؟ فيأتي الجواب مُبهَمًا مُروِّعًا: ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾!.

بلاغة استعمال لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾:

إبهامُ المَدعوِّ إليه يـورِثُ الرّهبةَ، ويُعَزِّز التّهديد

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾؛ للدّلالة على الإبهام المُفزِع؛ فالتّنكير هنا هو إبهامٌ يُراد به التّهويل؛ لأنّ النّفسَ إذا واجهَت المجهول خافَت منه أكثرَ ممّا لو عُيِّن، فكلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ مُبهمَةٌ تدلُّ على أمرٍ غامضٍ، مُفاجِئ غيرِ مُعتادٍ، يُستشعَرُ فيه الهولُ قبل أن يُكشَفَ النّقابُ عن حقيقته، كما أنَّ التّنكيرَ أفاد التّعظيمَ في سياق التّهديد والوعيد؛ أي: يَدع الدّاع إلى أمرٍ عظيمٍ لا يوصف، تُفزَع له القلوبُ، وتُنكِرُه الفِطَر[2].

بلاغة استعمال مفردة ﴿نُّكُرٍ﴾ وصفًا:

وَصْـفُ الـشَّيءِ بالنّكارةِ يُجسِّم الـفـزع، ويُبلغ بالهول غايته

كلمة ﴿نُّكُرٍ﴾ في قوله: ﴿شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ وصْفٌ مبالغةٍ لاسم المفعول، فهو شديدُ النّكارة[3]؛ أي: أمرٌ تُنكِرُه النّفوسُ، وتَمَجُّه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 177.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 177.
(3) فاضل السّامرائي، معاني النّحو، ص: 59، 60.

العقولُ، وتهرُبُ منه الفِطَرُ السّليمةُ، فهو غير مألوف، لا يقبلُه عقلٌ، ولا تصبِرُ عليه نفْسٌ[1]. أو هو صفة مشبّهة فيدلّ اللّفظُ على تشبُّع ﴿شَيْءٍ﴾ بالصّفة، فقوله: ﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾؛ أي: دائم النّكارة ومُتشبِّعٍ بها إلى أبعد حدّ[2]، وهذا الوصف يُتمِّم مَشهَد الهول في السّياق، ودلالةَ تنكيرِ الموصوف قبلَه، فالجمعُ بين الإبهام والوصف يُجَسِّم الهولَ؛ كأنّهم يُستقبَلون في يوم القيامة بنداءٍ مُروِّعٍ، إلى أمر مَجهول، لكنّه مشهودُ الفظاعة والغرابة، تفزَعُ له الرّوحُ قبلَ أن تراه[3]! فالتّعبير جَمَعَ بين أصل المعنى (الاستقباح)، وصيغة المُبالغة (الهول العظيم)؛ ليُصوِّرَ الحَدَثَ يومَ القيامة بأنّه شيءٌ فظيعٌ مُنكَرٌ، تستعظمُهُ العقولُ وتستفظعُهُ القلوبُ.

توجيه القراءات القرآنيّة:

قرأ الجمهور ﴿نُّكُرٍ﴾، وقرأ ابن كثير ﴿نُّكْرٍ﴾ على وزن (فُعْل) بضمّ الفاء وسكونِ العَين[4]، وهي وصفٌ يُفيد المبالغةَ أيضًا؛ أي: شيءٌ منكورٌ مُبالَغٌ في إنكاره لشِدّته وفظاعته. والفرق بين قراءة ضَمّ الكاف وسكونها: أنَّ الضّمَّ فيه مبالغةٌ من جهة الصّيغة؛ أي: أنَّ الوصفَ نفسَه بلغَ غايتَه. وقراءةُ السّكون فيه فيها إيجازٌ وقوّةٌ من جهة الوَقْع، يوحي بأنّ الشّيءَ بذاته بالِغٌ في النّكارة بحيثُ لا يحتاج إلى زيادة، فكلاهما يلتقي في معنى الشّدّة والفظاعة، لكنّ الضّمَّ أبلغُ في الوصف الكيفيِّ، والتّسكينَ أوجزُ وأشدُّ وقعًا في النّفس.

امتدادُ الصّوت بالضّمّ يناسب تفصيلَ الصّفة وبيانَها

بلاغة استعمال مفردة ﴿خُشَّعًا﴾:

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ كلمةِ ﴿خُشَّعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ لدلالتها على التّذلُّل والانكسار والخضوع،

مَـن لـم يخشع في الدّنيا اختيارًا فسيخشعُ في القيامة إجبارًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432.
(2) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 65، وصافي، الجدول: 14/ 66.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 177.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380.

وهو ما يُناسب مَوقِفَ المُشرِكين يومَ القيامة، ومن حيثُ الصّيغةُ فهي جمعُ خاشِع، وهو اسمُ فاعل صُيِّر إلى جمع تكسيرٍ؛ للدّلالة على الكثرة وتعدُّد الأفراد، وهي وصفٌ لحال الّذين يخرجون من قبورهم أذلّةً مُنكسِرةً أبصارُهم[1]. ونُكْتَة استعمالِ هذه المفردة دون مُقارباتها: هو التّعريض بمدح المؤمنين الّذين كانوا خُشّعًا لله تعالى في الدّنيا، وبيانُ أنَّ مَن لم يخشَعْ في الدّنيا اختيارًا، فسيخشع يومَ القيامة قهرًا وإجبارًا.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تصوير الخشوع في كلِّ فردٍ تفصيلًا، وفي المجموع جُملةً

قرأ البصريان وحمزة والكسائيّ وخَلَف: ﴿خَٰشِعًا﴾، وقرأ البقيّة: ﴿خُشَّعًا﴾[2]، فقراءةُ الإفراد ﴿خَٰشِعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ تُصوِّر الخُشوعَ صفةً شاملةً مُطلقةً، قد استولَت على كلِّ بَصَرٍ فردًا فردًا، فيُرى الذِّلُّ واحدًا مُتحقِّقًا في كلّ عين على حِدَة، ممّا يُبرِز شمولَ الأثرِ وتساوي النّاسِ فيه[3]، وقراءةُ الجمع ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ تُصوِّر تفرُّقَ المظاهرِ وتوزُّعَها على الأبصار، فيوحي بكثرة العُيون الخاشعة، وهولِ المَشهَد بكثرة الذّلّة الظّاهرة على كلّ الجماعات، فيكون أوقعَ في تصوير تراكمِ الخَوفِ والذُّلِّ الجماعيّ، فالإفرادُ يُركّز على شمول الخشوع في كلِّ فرد، والجمعُ يُركّز على كثرة الخاشعين وفظاعةِ المَشهَد الجماعيّ.

بلاغة الكناية في ذِكر الأبصار:

ذلّةُ الذّليل وعِزّة العزيز تَظْهَرانِ في عيونهما

إسناد الخشوع إلى الأبصار في قوله: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ مَجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الخُشوعَ والذّلَّ والانكسارَ هو في الأنفُس حقيقةً لا في الأبصار، ولذا أجازوا أن يكون ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ بدلًا مِنَ الضّمير في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خشع)، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 290، والسّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 133، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 142.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 100.

﴿خُشَّعًا﴾؛ لأنّ التّقدير: (خشّعًا هم)؛ أي: أنفسهم وذواتهم[1]. وإنّما أضاف الخشوعَ إلى الأبصار؛ لأنّ العِزّ والذُّلّ يتبيّن فيها، ويظهر أكثر من ظهوره على بقيّة البدن، فالأبصارُ كاشفةٌ لِما في النّفوس[2]، فقولُه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ كنايةٌ عن صفة الذِّلّة والانخذال؛ لأنّ ذِلّة الذّليل وعِزّة العزيزِ تظهران في عيونهما[3].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع:

تـصـويـرُ حـالِ الـخـارجـين من قـبـورهـم في مشهد مفاجئ متتابع

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ لتصوير حال الخارجين من قبورهم؛ فناسبَ التّعبيرُ بالمضارع لإبراز المَشهَد المُفاجئ المُتتابع.

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

مبـدأ الـخُـروج والانبعاث يكون من داخل القُبور

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ لابتداء الغاية المكانيّة؛ أي: مبدأ خروجهم وانبعاثهم يكون من داخل القبور.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾:

الأجداث تختصُّ بصوتٍ دالّ على خـروج الـنّـاس من قبورهم

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ دون (القبور)؛ وذلك لأنّ الأجداثَ مُرتبطةٌ بمعنى الجَدَث، وهو صوت الحافِرِ والخُفِّ وأكلِ اللّحم، وهذه الأصوات الثّلاثة ستكون حاضرةً وقتَ خروجِ النّاس من قبورهم، فتنمو اللّحومُ على الأجساد، ثمّ يَحْفرون ليَخرجوا، فصوتُ الحَفْرِ ونُموِّ اللّحم هو الحاضر بقوّة في مَشهَد القيامة، وهو الّذي بسببه سُمّي القبر جَدَثًا، فإنَّ تآكل اللّحوم ابتداءً واضمحلالَها هو سببُ تسميةِ القبر بالجَدَث، فكذلك القبر عند نُموِّها، ويُرشِّحُ ذلك أنَّ الآياتِ الّتي ورد فيها لفظُ الجَدَث تصوِّرُ وقتَ خروجِ الأجساد من قُبورها.

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في الإعراب: 27/ 143.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 13/ 290.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432.

نوع (أل) في لفظِ ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾:

ما وافق خصوصَ السّياقِ فهو المُقدَّم على عموم الواقع

عُرِّفَ لفظُ ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، بجعل (أل) عوضًا عنِ المضاف إليه المحذوف؛ أي: من أجداثهم؛ لأنَّ السّياق فيهم، ويحتمل أن يكون تعريفَ الجنسِ؛ أي: القبور على وجه العموم، لا قبورًا مَخصوصة. والإتيان بـ (أل) الجنسيّة يُشعِرُ بأنّ هذا المَشهَد عامٌّ شامِلٌ لكلِّ القُبور في الدّنيا، فيُبرِزُ شموليّةَ البعث، وأنّه لا يختصُّ بقومٍ دونَ قوم، ولا بمكانٍ دونَ مكان، ودلالةُ الجِنس صحيحةٌ باعتبارِ عمومِ الحَدَث، لا باعتبار خصوص السّياق، ولذلك الأولَى أن تكون (أل) عِوضًا عنِ المضاف إليه المحذوف.

بلاغة التّشبيه ونوعه:

انتشار الجَراد صورةٌ مُركَّبة تجمَعُ التّكاثُفَ والانتشار والازدحام

في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ تشبيهٌ مُرسَل مُفصَّل: حيثُ شبّههم بالجَراد المُنتشِر، في الكثرة والتَّموّج والانتشار في الأقطار، بجامِع الكثرة، وعدمِ الاستقرار، والانتشارِ في الأقطار، كما جاء تشبيهُهُم بالفَراش المَبثوث. وقد قيل: يكونون أوّلًا كالفَراش حين يَموجون اضطرابًا وفَزَعًا، لا يهتدون أين يتوجَّهون؛ لأنّ الفَراش لا جهةَ لها تَقصِدُها، ثمّ هُم كالجَراد المُنتشِر إذا توجَّهوا إلى المَحشَر، فهما تَشبيهان باعتبار وقتَين[1]. والتّشبيه هنا مُرسَلٌ؛ لذِكر الأداة، ومُفصَّل؛ لذكر وجه الشّبه، وهو الانتشار، فكأنّه قال: خروجهم من قبورهم كالجَراد في انتشاره. كما أنَّ هذا التّشبيه مُركَّبٌ، فهو تشبيهٌ تمثيليّ؛ لأنّه تشبيهُ هيئةِ خروج النّاس مِنَ القبور مُتراكِمين، بهيئة خُروج الجَراد مُتَعاظِلًا - يركب بعضُه بعضًا كما السِّفاد - يسير غيرَ ساكن[2]، وقد أفاد هذا التّشبيهُ تجسيدَ الصّورةِ وتشخيصَها؛ فهذه الجموعُ الخارجة منَ الأجداث

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 80، وصافي، الجدول: 14/ 67.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 179.

في مثل رَجْعِ الطّرف تُشْبهُ الجَرادَ الّذي اشتهر بانتشاره واحتشاده دون أن يكون له هدفٌ من هذا الانتشار والاحتشاد، وكذلك هذه الجموعُ قد ألجمَها الخوفُ، وعَقدَ الهولُ أفهامَها، وضربَ عليها رواكدَ مِنَ الحَيرة، وغشيَها بأمواجٍ مِنَ الضّلالة والرَّين، فهي تسير تلبيةً لدعوة الدّاعِ دونَ أن تعرف لِمَ يَدْعوها، ولكنّها تعرف بصورة مُبهمة أنّه يدعوها إلى شيءٍ نُكرٍ لا تكْتَنِهُ حقيقتَه، ولا تعرِفُ فحواه[1].

غرض تنكير لفظ ﴿جَرَادٌ﴾:

صـورة الـجَـراد المُـشـبَّـهِ بـه تـقـريـبـيّـة لا تحقيقيّة

نُكِّر لفظُ ﴿جَرَادٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ للتّعظيم والتّهويل وإظهار المُفارقة، فالتّنكير يُشعِر بأنّهم ليسوا كأيِّ جَرادٍ مَعهود، بل جَرادٌ عجيبٌ مُرعِبٌ في كثرته واضطرابه وانتشاره، فيجعلُ صورةَ البعثِ أفظعَ وأقوى. ولو قال بالتّعريف: (كالجَراد المُنتشِر)؛ لأفاد التّشبيهُ تشبيهَ الخارجين مِنَ القبور بجَرادٍ مَعروفٍ مألوفٍ عند النّاس في حياتهم، فيقتصرُ على المُشابهة من حيثُ الهيئةُ الطّبيعيّة للجَراد إذا انتشر، أمّا التّنكيرُ فيدلُّ على انقطاع النّظير في شدّة الكثرة والفوضى والانتشار[2].

علّةُ التّشبيهِ بالجَراد المُنتشِر:

بـيـان الانـتـشـار غـيـرِ المُـنـظَّـم كغوغاءِ الجَراد لـتـصـويـرِ هـول المَوقِف

آثر النَّظمُ الكريم تشبيهَ الخارجين مِنَ القُبور بالجَراد المُنتشِر في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾؛ لبيان صورة الانتشار فهو ليس انتشارًا على وجه المَهَل والوقار، بل انتشارٌ غوغائيٌّ كانتشار الجَراد، زيادةً في هول ذلك اليوم، وتقريرًا لِما تقدَّم من وصفه[3]. والانتشار هنا هو وجهُ الشّبهِ، والتّصريح به أكّدَ في الأذهان أنَّ التّشبيه حاصلٌ في الكثرة وزحمةِ الاختلاط، لا في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 375.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.

صِغَرِ الجُثَثِ والذّوات. فهم كالجَراد في كثرته وزحمتِه في انتشاره، لا في صِغَر جِرمِه وحجمه.

بلاغة استعمال مفردة ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾:

تصوير حالِ الهَلَعِ الشّديد بمَدِّ الأعناق وشخوصِ الأبصار

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾؛ لدلالتها على أمرين معًا، وهما الإقبال على الشَّيءِ بالبصر مع الانقياد، ولا يكون ذَلك إلّا مَعَ خَوفٍ، والإسراعُ في العَدْو مع مدِّ العُنُقِ بانقيادٍ[1]، فالمفردةُ تصوِّر حالَ المُهطِعِ بأنّه مذعورٌ مُنقادٌ مُسرِعٌ مادٌّ عنقَه، شاخصٌ بصرُه، فهي تصوِّر حالَ الذّعر والهلع والغموضِ الّذي يعيشُه الإنسانُ حالَ خروجه مِنَ القبر، دون أن يكون هناك التفاتٌ لشيءٍ سوى أن ينظرَ أمامَه بشخوص البصر ومدّ العنق.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدَّاعِۖ﴾:

المعهود المذكور الذي ينادي بالبعث

تعريف لفظ ﴿ٱلدَّاعِۖ﴾ للعهد الذّكريّ؛ أي: المعهود المعلوم الّذي ذُكر سباقًا في قوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾، وهو المَلك الّذي ينفخ في الصّور أو ينادي بالبعث[2].

فائدة إظهار لفظ ﴿ٱلدَّاعِۖ﴾:

دفع توهُّم الاحتمالِ وتصويرُ مَشهَد الخروج بأدقّ تفاصيله

آثر النّظمُ الكريم إظهارَ لفظِ ﴿ٱلدَّاعِۖ﴾؛ لِدفع توهُّم إرادة الله تعالى، فإنَّه لو أُضمِر لاحتمل السّياقُ ﴿ٱلدَّاعِۖ﴾ ولفظَ الجلالةِ، وتعيينُه يدلُّ على أنّهم ما زالوا في إبهامٍ مِنَ المَشهَد، وضياعٍ في المَوقِف، فلو قال: (مُهطِعين إليه) لاحتمل إرادةَ الإهطاع إلى الله تعالى، وهذا الاحتمال يُغيِّبُ إرادةَ تصوير المَشهَد بامتداداته الّتي تدلُّ على أنَّ النّاسَ حين الخروج في حالِ خوفٍ وهَلَعٍ مُبهَم، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (هطع).

(2) القنّوجي، فتح البيان: 13/ 290.

﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ [يس: 51 - 52].

علّة فصْلِ جملة ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

الاستئناف البيانيّ تجاوبٌ مع المُتلقّي وتحريكٌ لِمكنونات الفِكْر

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ عمّا قبلَه؛ لِكونه في مَوقِع الاستئناف البيانيّ، فالجملةُ في مَوقِع الجواب عمّا نشأ قبلَها من وصف اليوم والأهوال وأهلِه بسوء الحال في قوله: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، كأنّه قيل: فماذا يكون حينَئذٍ[1]؟ وماذا يصدر عنِ الكافرين من مَواقِفَ وأقوالٍ، فأُجيب: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، والاستئناف البيانيّ من دواعي الفصل، وهو شبهُ كمالِ الاتّصال.

بلاغة إظهار الفاعل دونَ إضماره:

عُسرُ القيامةِ مُختصٌّ بالكافرين بسبب كفرهم

آثر النّظمُ الكريم ذِكرَ الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ مُظهَرًا بلفظ: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، دون إضماره بأن يُقال: (يقولون)؛ ليعودَ على الضّمير (هم) في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ﴾؛ للتّخصيص والتّنصيص على الكافرين دون غيرهم، بأنّ العُسْرَ مَشهودٌ مِنَ الكافرين فقط، وأنّ المؤمنين لا عُسْرَ عليهم، بل أمانٌ ويُسْرٌ في مَبعَدَةٍ عنِ الفزَع والحَزَن[2]، ولو قال: (يقولون) لاحتمل العمومَ، ولإظهار سببِ العُسْر؛ أي: بسبب كفرهم، وقسوةِ قلوبهم، وقُبحِ أعمالِهم، أحسّوا بهذا اليوم عسيرًا، في حين لا يُحِسُّ به المؤمنون كذلك.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الإشارة القريب:

إيصال المعنى بصيغة حسّيَّة واضحةٍ بطريق الإشارة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ اسمِ الإشارةِ للقريب في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾؛ لتعريف ما يكون في اليوم، فهم لا يمتلكون أدواتٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 168.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 80.

مَعرفيّةً لبيان المقصود بهذا اليوم، إلّا أنّه يومٌ عَسِرٌ، فأشاروا إليه باسم الإشارة القريب؛ للتّعريف بما استكنَّ في نفوسهم تِجاهَهُ، ولإضفاءِ الوضوح الحسّيِّ على شدّتهم في هذا اليوم، فالإشارةُ بالقريب تُجَلّي المرادَ وتُجَرِّدُه مِنَ الإبهام، فلا يكتنفُهُ الغموضُ، أو شيءٌ من شوائب الإلباس والتَّشوّش، كما أنّها تُؤكِّد المعنى المُصاحبَ للمُشار إليه بتشخيصه وتقريبه المكانيِّ والزّمانيِّ.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿يَوۡمٌ﴾:

تهويل يوم القيامة على الكافرين

نُكِّر لفظُ ﴿يَوۡمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾؛ لإفادة التَّهويل، فكلامُ الكافرين يعكِسُ هولَ ما رأوه، خاصّةً وأنّهم وصفوه بأنّه عَسِرٌ.

فائدة وصفِ اليوم بأنّه ﴿عَسِرٞ﴾:

يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ يسير

وَصف اليوم بـ ﴿عَسِرٞ﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ ينفي عنِ الظّرف أيَّ إبهام أو غموض، كما يعيّنُ حقيقة اليوم، ويُثبِتُ شدَّته بوضوح[1].

بلاغة استعمال مفردة ﴿عَسِرٞ﴾ مادّةً وصيغةً:

وَصفُ اليوم بالعُسر بيانٌ لِما يراه الكافرون ويستشعرونه

التّعبير بالعُسْر في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾؛ لإظهار شدّة اليوم وصعوبته، وإخلائه من مظاهر اليُسْرِ والرّاحة في طبائع أحداثه[2]، وهو وصفٌ لِما يستشعرُهُ ويراهُ الكافرون في ذلك اليوم، وهو ما يقذفُهُ اللّهُ في قلوبهم، وما يُجريه على أبصارهم من رؤيةِ أهوالٍ تقودُهُم إلى مثل هذا الوصف، وقد قال تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [اللّيل: 10]، وقد جاء على وِزان الصّفة المشبّهة (فَعِل)؛ وهي صيغة تصف ثبوتَ الصّفةِ في الموصوف؛ أي: هو يومٌ ثابتُ العُسْر لا يزولُ وقْعُ عُسرِه عن الكافرين[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(3) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 69.

بلاغة المَجاز ودلالتُه:

تـصـويـر ما يكون في الزّمان بنسبته إليه

وَصْفُ اليوم بأنّه ﴿عَسِرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ مَجازٌ بديعٌ؛ لأنّ العُسرَ ليس وصفًا حقيقيًّا لليوم ذاتِه، بل لِما يجري فيه من أحداثٍ شديدةٍ على الكافرين[1]، كالحشرِ، والحساب، والنّداء، والخوف، تمامًا كما نقول: هذا يومٌ سعيدٌ، أو هذا يومٌ مَشؤومٌ، والمقصود ما يُقارِنُ اليومَ من وقائعَ وأحوالٍ.

❁ الفُروقُ المعجميّة:

اقتربت وأزِفَتْ:

الأزف قربٌ مع شدّةٍ وضيقٍ، والاقتراب قربٌ مُطلَقٌ

الأزَف: هو قُربٌ مخصوصٌ بحال الضّيق، فأزِف الوقتُ: دنا وقرب (فضاقَتِ الفُسحة الزّمنيّة بينك وبين حلوله). ومعنى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النّجم: 57]: قَرُبَتِ القيامة[2]، فهي آزِفَة؛ لأنّها دائمًا في اقترابٍ يُضيِّقُ الوقتَ بيننا وبينها[3]. والأزَف أيضًا: الضّيق وسوء العيش[4]، فهو ضيقٌ حسّيٌّ وضيقٌ معنويٌّ نفسيٌّ.

وأمّا القُربُ: فهو ضِدّ البُعدِ، حسّيًّا كان أم معنويًّا. وهو دُنوُّ شيءٍ من شيءٍ[5]، ولا يَلْزَم فيه اقترانُه بالضّيق أو سوءِ الحالِ أو الشّدّة. ولذا فلفظُ (أزف) يُستعمَلُ في سياق الشّدّة والضّيق والوعيد في القرآن[6]، كما في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النّجم: 57]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: 18]، فهو إنذارٌ بقُربٍ شديدٍ يقترنُ بوعيدٍ، فهي ضيّقةٌ في الوقت، وضيّقةٌ في سوءِ حالِها على الكافرين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 239، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 430.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أزف).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (أزف).
(5) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أزف).

الإعراض، والنّأي، والصّدود، والبُعْد، والتّولّي، والانصراف:

التّـولّي إعـراضٌ مـع إقـبـالٍ على آخر

الإعراض: هو الانصرافُ عنِ الشّيء بلا مُبالاةٍ، وعدمُ اكتراثٍ بتوليةِ وجهه وإبداءِ عَرضِه، وهو مأخوذٌ مِنَ العَرض، وهو النّاحية الّتي تُقابِلُ الطّول، ومنه العُرض بضَمّ العَين، وهو النّاحية والجانب العريض في الشّيء[1].

والنّأْيُ: هو الصّرفُ والإبعاد بقوّة، فهو إبعادٌ يشتمِلُ على مُبالَغةٍ وشِدّة[2].

والصّدود: مِنَ الصّدِّ وهو المَنع، والصَّدُّ: الحاجز المانِع بين الشّيئين، والصّدود: الانصرافُ عنِ الشّيء مع حيلولةٍ وتَمَنُّعٍ، ففيه معنى الابتعاد بفجوةٍ وغِلظَة[3].

والبُعد: خِلافُ القُرب، وهو جَعْلُ فُسحةٍ ومسافةٍ بين الشّيء والشّيء، فلا يلتقيان، وليس لذلك حَدٌّ محدود، وإنّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، فهو أعمُّ مِنَ النّأي والإعراض والصّدود، لأنّه قد لا يكون عن قصدِ مُجافاةٍ أو تمنُّعٍ أو انصرافٍ وإعراض[4].

والتّولّي عنِ الشّيء وإنْ تضمَّنَ معنى الإعراض عنه، فلا يخلو من معنى القُرب بحالٍ؛ وذلك لأنّ معنى القُرب أصلٌ في مادّة اللّفظ، وعليه، فإذا قيل: تولّى عن كذا، فيكون بمعنى: أعرضَ عنه وقَرُب إلى غيره، فالتّولّي بمعنى الإعراض، فيه معنى الانصراف عن جهة، وموالاة جهةٍ أخرى، فليس إعراضًا مَحضًا إلى غير بديل[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عرض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نأي)، والرّاغب، المفردات: (نأى)، وابن منظور، لسان العرب: (نأي)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نأو، نأى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صدد).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعد).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ولي).

والانصراف عنِ الشّيء: هو التَّحوّل عنه والرّجوع فيه، كما في قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان: 19]؛ أي: لا يقدرون أن يصرِفوا عن أنفسهم العذابَ، أو أن يصرفوا عن أنفسهم النّارَ، أو يصرفوا الأمر عن حالةٍ إلى حالةٍ[1].

النّبأ والخبر والحديث:

النّبأ: أصل (نبأ) الانتقال من مكانٍ إلى مكان، وسُمّيَت الأخبارُ المَحكيَّة بالأنباء؛ لكونها تنتقل من جهةٍ إلى جهة. والنّبأ يُقال في الخبَر الّذي لا يعلمُه المُخبَر، ولذا يقتصر على الأخبارِ ذاتِ الفائدة العظيمة؛ لأنّ الإخبارَ بما لا يعلمُه المُخاطَب، يُحدِثُ عندَه عِلمًا لم يكن عنده فيستفيد.

النّبأ هو الخبر العظيم الّذي له شأن، والخبرُ أعمُّ منه

والخبَر: هو العِلم بحقيقةِ الشّيء، وهو عامٌّ في جميع المعلومات المَعلومة بالخبَر، وهو أعمُّ مِنَ النّبأ في نفسِه وفي جِهتِه (المُخبَر)، فقد يكون حقًّا وباطلًا، وقد يكون ذا فائدةٍ أو خالٍ منها، وقد يكون المُخبَر عالِمًا بما يُخبَر به أو غيرَ عالم[2].

والأحاديث: هي الأقاويل الّتي تحدُث بعدَ أن لم تكُن، وكلامٌ يحدُث منه الشّيء بعد الشّيء. فأصلُ ذلك مِنَ الحدوث، وهو النّشوء الجديد للشّيء قبلَ أن يكون، ومنه الحديث ضدّ القديم[3].

القُبور والأجداث:

القَبر: هو مَقرُّ الدّفنِ، ومَوضِعُ المواراة عمومًا[4]، وهو مُختصٌّ بحالِ السّتر والغموض[5]، ولذلك جُعِل من إكرام الميّت قبْرُه، فقال

القُبور للدَّفن، والأجداثُ للبعث

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صرف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خبر، نبأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حدث).

(4) الرّاغب، المفردات: (قبر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبر).

تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ [عبس: 21]؛ أي: جعله ممّن يُقْبَر، ولم يجعله يُلقى للكلاب والطّير والسّباع، فالقبر ممّا أُكرِمَ به بنو آدم[1]. وأمّا الأجداث فهي القبور أيضًا، لكنّها مُقترِنةٌ بوقت خروج النّاس منها، والجَدَث في كلام العرب هو صوتُ الحافر والخفّ، وصوتُ أكلِ اللّحم، فكان ذِكْرُ الأجداث لتصوير حال خروج النّاس من قبورهم، وقد نمَت على أجسادهم لحومها، ثمّ خرجوا بأظفارهم من قبورهم، فهذا الصّوت هو الجَدَث، وهو نُكْتَةُ التّسمية، كذلك وقت الموت لِما في القبور من تآكُل اللّحوم، ووقت الخروج لِما في القبور من صوت نموّ اللّحم، والفرق بين الأجداث والقبور يتبيّن فيما يأتي؛ الأوّل: القبور مكان دفنِ الأجساد، بينما الأجداثُ مكانُ بعث الأجساد. الثّاني: القبور مكان ذهاب الأبدان في الأرض، بينما الأجداث مكانُ عودة الأبدان مِنَ الأرض. الثّالث: القبور نهاية الإنسان بعد حياته الدّنيويّة، والأجداث بداية الإنسان قبل حياته الأخرويّة[2].

مُهطِعين ومُسرِعين:

الإهطاع إسراعٌ مُقترِنٌ بمدّ البصر، والإسراعُ أعمُّ منه

الهُطوع إسراعٌ مخصوصٌ بمَدّ العنُق، فهو إسراعٌ مُقترِنٌ بإقبال الأبصار على الشّيء المقصود. قال الجوهريّ: "هَطَعَ الرّجل، إذا أقبلَ ببصره على الشّيء لا يُقلِعُ عنه، يَهطَع هُطوعًا"[3]. قال ابن عطيّة: "المُهطِعُ: المُسرِعُ في مَشيه نحوَ الشّيءِ مع هَزٍّ ورَهَقٍ، ومَدٍّ بصرٍ نحو المَقصِد، إمّا لخوفٍ أو طَمعٍ أو نحوه"[4].

وأمّا الإسراعُ فهو ضِدُّ البطء[5]، فليس مُقيَّدًا ولا مَخصوصًا بحالٍ سواه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قبر).
(2) المثنى محمود، الإيضاح والتّقييد في إعجاز القرآن للجيد، ص: 224.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هطع).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 213.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"